المسلمون

من التبعية والفتنة

إلى القيادة والتمكين

د. عبد الحليم عويس

مكتبة ونشر
العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين

تأليف

د. عبد الحليم عويس

مكتبة ومطبعة العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عويس، عبدالحليم

المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتمكين/عبدالحليم عويس. - الرياض، ١٤٢٧هـ

٢١٩ص، ١٤×٢١سم

ردمك: ٥-٩٤٦-٤٠-٩٩٦٠

١- الفتن في الإسلام ٢- الوعظ والإرشاد أ- العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٠٩/ ١٤٢٧

ردمك: ٥-٩٤٦-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٠٩/١٤٢٧

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

الرياض. العليا. تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي هذه الصفحات

- لا يستطيع مؤلف أن يزّعم أنَّه يُشَخِّص الداء كله.. لأمة نامت عدة قرون، ولا أنه يصف الدواء كله... فكتاب اللَّه المحكم - وحده - هو الذي يتفَّرد بهذا الألق الأعلى.. وهذا الأفق الأسمى..

- وحسْبنا - من مواقع همنا الإسلامي وجهودنا في سبيل الخروج من التِّيه - أن نَضَع أيدينا على بعض الأمراض... وأن نقدم للأمة معالم على طريق الخروج إلى عالم الرشاد... في ظل راية أصيلة، هي هُدى اللَّه... وهدايا الإسلام للإنسانية في كل العصور، وفي ظل شعارٍ ثابت هو (لا تَيْأسُوا)...

ففي مناخ اليأس والشعور بالانهزامية والدونية والشك في الذات والثوابت، لا يمكن أن نَعْبُرَ (الفتنة) ولا أن نواجه الأمراض، أو نقود الآخرين... التائهين الباحثين عن عالم آخر تتحقَّق لهم فيه الحضارة المتوازنة الإنسانية الصحيحة، وتحكمهم فيه الأخلاق الصحيحة، ويتكافلون فيه كشركاء في سفينة واحدة، لا كحيوانات في غابةٍ يعمل خمسها من الوحوش الضارية على تدمير أربعة الأخماس... لينفردوا - ويُتْرفوا - بخيرات الغابة وحدهم!!.

- وهذه الغابة في الحقيقة هي هذه الأرض التي نعيش عليها اليوم... والتي تحكمها عولمة القوة، والغش، والمكر، والكذب!!

وتضيعُ فيها معاني الدين والقيم.. لغياب المسلمين عن القيادة من

جانب، ولوقوع كثير منهم في أوحال الفتن والانتحار والتآكل والعمل في خندق الأعداء بوعي أو بغير وعي... من جانب آخر!!

❖ ❖ ❖

إنها خطوات على الطريق... وإنها رؤية..

وإنَّ كاتبها ليأمل أن تتلوها رؤى وخطوات، منه أو من الآخرين.... شريطة أن تكون من موقع الانتماء والمعايشة.. والثقة في أن العاقبة للمتقين، وأنه لا مكان لليأس من رحمة اللَّه، أو خداع النفس بلعن الظلام،

بل... بالعمل الإيجابي، وبإضاءة شمعة - أو شموع - من كل فرد من مئات الملايين من المسلمين القادرين على الإضاءة.. وبعودة القيادة (للأمة)... والفعل الحضاري (للأمة).

أما (الدولة) فراعية وحارسة... فالخطاب كان للأمة... ولا مجال لصرفه عنْها...

«كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون باللَّه»

«وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداءَ على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً»...

وعلى أعضاء هذه الأمة تقع المسؤولية، وبجهودهم يتحقق التمكين بإذن الله.

د. عبد الحليم عويس

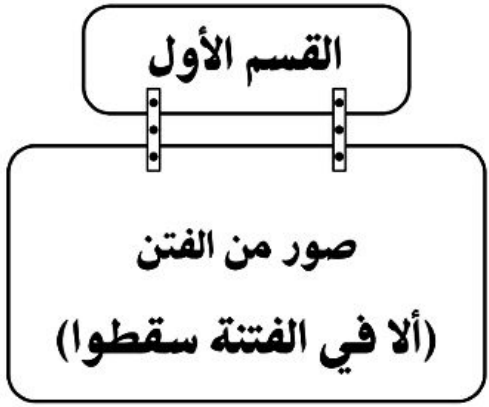
القسم الأول
صور من الفتن
(ألا في الفتنة سقطوا)

أولاً

فتنة التغريب

(نماذج من أساليب المستغربين العرب)

فتنة التغريب

ليس المجتمع مجموعة من الأفراد يعيشون في أرض محددة بل هو - مع ذلك - تنظيم معين ذو طابع إنساني يتم طبقاً لنظام معين، يقوم على عناصر ثلاثة: حركة يتسم بها المجموعة، وإنتاج لأسباب هذه الحركة، وتحديد لاتجاهها(١).

ولكي تتم حركة تغيير أو تطوير أو تفاعل بين المجتمع - أي مجتمع - وبين مجتمعات أخرى، أو في مواجهة متغيرات إنسانية عامة، فإنه لابد من رصد المصدر الذي وفدت منه عملية التغيير(٢).

فعندما تختل معايير التفاعل أو شروط التغيير تعجز - بالتالي - عناصر النظام الاجتماعي عن القيام بوظائفها ويتجه التغيير سلباً، ويمضي في طريقه إلى الإخلال بأركان البناء الاجتماعي حتى يصل به إلى الذوبان والانسحاق.

وأسوأ ما يصيب المجتمع - وهو يواجه عملية التفاعل أو التغيير - أن يصاب بالشلل من داخله، ويقع ذلك عندما ينجح العدو الحضاري في اختراق كيانه، وتحويل بعض أعضائه إلى حَمَلَة لأفكار الخصم وحماة لها.

---

(١) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دارالفكر، دمشق، ص ١٥.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٩.

فهنا يتصارع المجتمع داخلياً، ويتعاون أفراده على تحطيم بعضهم وتبديد طاقتهم، فتتقدم العوامل الخارجية في فراغ، ويسود فقر الأفكار التي من شأنها - لو وجدت المناخ المناسب - أن تحقق التفاعل الحضاري وفق شروطه وعناصره، لربما تتعطل الأفكار تماماً وتصبح بعض أركان المجتمع لا همّ لها إلا مواجهة الأركان الأخرى، بل ربما استعانت بالخصوم في مواجهة شركائها في المجتمع والحضارة !!

والمشكلة التي يواجهها العرب والمسلمون منذ إدراكهم للهوّة الحضارية التي تفصلهم عن العصر، أنهم لم يستطيعوا وضع شروط التفاعل الحضاري وسنن اللّه في التغيير موضع تطبيق.

لقد كتب مفكروهم كثيراً من الكتب حول أسباب تأخر المسلمين ووسائل نهضتهم، وحول أزمة العقل العربي والإسلامي، لكن الحكام بصفة عامة حالوا دون أن تكون هذه الدراسات موضع الاعتبار والتقدير، بل ربما نظروا إليها على أنها كلام متفلسفين يعيشون في أبراج منعزلة بعيدة عن مفردات الصراع السياسي، كما أن الطبقة التي نجح خصوم الحضارة في اقتحام عقولها وإصابة وجدانها بالشلل الوطني والقومي والإسلامي، وجذبها إلى قبلتهم.. هذه الطبقة تبذل كل جهدها حتى لا تصل هذه الأفكار الأساسية في صناعة النهضة وفي التغيير الحضاري إلى أصحاب القرار، وإلى الذين يملكون القدرة على تحريك الأمة من خلال مؤسسات التربية والتوعية في اتجاه البناء الصحيح.

فإذا ذهبنا إلى الطرف الآخر - وهو (حضارة الغرب) التي اكتشفنا أنها الخصم الأكبر الذي يسعى لغزونا وسحقنا منذ شعرنا بقوته وهو

يدوس الأزهر بخيوله، ويدك القلعة بمدافعه سنة ١٧٩٨ م فيما يسمى بالحملة الفرنسية على مصر.. إذا ذهبنا إلى هذا الخصم نجده أيضاً يرفض التعامل معنا بأسلوب حوار الحضارات وأبجديات التفاعل الحضاري.. إنه جاء بخطة جاهزة ولأهداف محددة، وهو مستعد لأن يناور كثيراً مستخدماً كل وسائله الميكيافيلية، لكنه ليس مستعداً لأن يتنازل عن خطته أو أهدافه.

فعلى الرغم من كل البيانات والمنشورات والتحليلات التي صاحبت وأعقبت الغزوة، إلى يومنا هذا، كان نابليون صريحاً في تحديد مهمته عندما قال: «سأستعمر مصر» انطلاقاً لبناء امبراطورية شرقية نابليونية.

ومنذ دخول الحملة إلى الإسكندرية - بل قبل دخولها الإسكندرية في مطلة - أثبتت أنها حملة بربرية، فهؤلاء الذين جاؤوا لتحرير (المصريين) من المماليك كان أول ضحاياهم حاكم الإسكندرية (المصري) الذي رفض الحماية الأجنبية فأعدموه بعد التعذيب والحبس والتشهير.

وعندما صب نابليون نيران الثورة الفرنسية على الأزهر كان نابليون الذكي (الدجال) يعرف الحقيقة أكثر من صبيان المبشرين المعاصرين... لقد كان يعرف أنه بضربه الأزهر يضرب قيادة الأمة الصحيحة... يضرب تاريخها ومستقبلها الصحيح.

كان الأزهر يمثل الكيان المتميز لهذه الأمة، يمثل ذاتها وتراثها وإمكانية مستقبلها.. أدرك المحتلون ذلك كله، لذا نراهم في الوقت نفسه الذي يجرون فيه المفاوضات والمساومات مع الباب العالي بهدف التفاهم معه، ويعقدون الاتفاقيات مع فلول المماليك، ويصبح كبيرهم

«مراد بك» بمثابة موظف أو قائد قوة بوليسية تابعة للمحتل الفرنسي.. في الوقت نفسه كان الصِّدام يتصاعد يومياً بين جيش الاحتلال أو السلطة الفرنسية وبين الأزهر.. وانتهى ذلك الصراع بإغلاق وتسمير أبوابه بعد مصرع كليبر... وفي عهد خليفته - الذي ادعى الإسلام «عبد الله جاك مينو» [1].!!

وقد وصلت الرسالة الاستعمارية إلى مجموع المصريين فهبوا من وراء الأزهر يقاومون الحملة التغريبية الفرنسية التي حاولت خداعهم بالمطبعة وببعض الوسائل المادية العلمية الحديثة.. هبوا يدافعون عن حضارتهم وأصالتهم، مدركين بوعيهم الفطري الفروق بين التغريب والتحديث، فالتغريب هو الذوبان في الغرب بخيره وشرّه، وهو تبعيّة تشبه تبعية القرود والعبيد. أما التحديث فهو امتلاك المعرفة التي يتفوق بها الغرب وإنتاج كل المعدات التي ينتجها الغرب، وهي علاقة إنسان بإنسان وتلميذ بأستاذ، وليست علاقة عبد بسيد ولا قرد بإنسان.. التحديث يعني المساواة بالغرب إنسانياً وعقلياً وفكرياً، والإيمان بأن التخلف شيء عارض يجتاح كل الأمم، وأنه ظاهرة طارئة يمكن علاجها عندما تلتزم الأمة بشروط النهضة، وتمتلك مؤهلات الحضارة وتمضي في مسيرتها ملتزمة بسنن اللَّه الكونية.

إن التحديث يعني أن أعاني ميلاد الحضارة، وأن أنشر الخشونة والتقشف حتى أهيئ المناخ المناسب للرجولة والنضال والجهاد، وأن

(١) - الأستاذ محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص ٨، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ، الدار العلمية، بيروت.

أهيئ نسبة كبيرة من دخلي لتنفق في العلوم ووسائلها وعلى ترجمة الكتب العلمية، لا على ترجمة كتب الترف الفني والمذاهب الفلسفية والروايات الانحلالية... بإيجاز: التحديث هو أخذ دوري في التنافس الحضاري من أجل صنع الحضارة مروراً بأعباء الحمل والولادة، وصبراً على تحمل كل الآلام.. وأن أومن، وأقنع كل المصريين والعرب والمسلمين، كما اقتنعت اليابان بعد هزيمة مدمرة، بأننا لسنا أقل من الأوروبيين في الإنسانية أو العقل أو الإبداع، وأن تخلفنا مرض طارئ لن يلبث أن يزول.

أما التغريب، فيبدأ من إقناع الأمة الشرقية بأنها متخلفة في جوهرها، متخلفة في تاريخها وصميم تكوينها، ومن ثَّم فلا بد من انسلاخها تماماً عن كل ما يربطها بماضيها ويميز ذاتها، وإعادة تشكيل المجتمع على الطراز الغربي من ناحية العادات والمظاهر السلوكية مع إبقائه متخلفاً عاجزاً عن إنتاج سلع الغرب.. عاجزاً عن اكتساب معرفة الغرب، فإذا ما اكتسب بعض أفراده هذه المعرفة، يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل في مجتمعهم فيضطرون إلى النزوح إلى عالم المتفوقين (١).

وإذا كان من حقائق علم الحياة أن عملية نقل الدم تخضع لشروط وقواعد دقيقة ينبغي مراعاتها مخافة أن يؤدي الأمر إلى زلزلة الجسم المتلقي والفتك به، إذ ليس كل عضو من عناصر الدم بقابل ليحل محل الآخر، لما بين فصائله من اختلاف عضوي يرجع في الحقيقة إلى

(١) المرجع السابق، ص ١٤.

اختلاف الأبدان [١]... إذا كان الأمر كذلك فإن التغريب هو عملية نقل دم مع اختلاف الفصائل والخلفية الثقافية والعقلية الحضارية ودون تعريض عملية النقل للتنقية والترشيح!!.

وقد هبَّ المصريون من وراء الأزهر فرفضوا التغريب وطردوا الحملة الفرنسية، مؤْثِرين أصالتهم على صفقة خبيثة تعطيهم منتوجات حضارة حديثة دون أن تعلمهم وسائل إنتاجها، وفي سبيل ذلك تقضي على مقوماتهم الحضارية.. وقد وصلت الرسالة الأزهرية الوطنية الإسلامية إلى الاستعمار الصليبي فأدرك أنه لابدَّ من أجل غرس التغريب أن يهدم الأصالة، أو على الأقل أن يصرف الأمة من حولها ويشل فاعليتها. ولما كان ذلك صعباً بل وفاشلاً بواسطة القوة، فقد لجأ إلى أساليبه الخبيثة المعروفة، فعمل على تجريد الأزهر من قيادته الفكرية، وجعله مدرسة أو جامعة مثل كل الجامعات، خالية من الإشعاعات ومن الرسالة الحضارية، بل أقرب ما يكون إلى المهنية والحرفية التقليدية المجردة من الإبداع ومن الدعوة والرسالة، ولهذا فقد بُنيت حول الأزهر في القاهرة أسوار من المدارس الأجنبية التنصيرية الحديثة التي تخضع للتصورات الإنجيلية والغربية. وفي مواجهة الأزهر على امتداد عدة كيلو مترات، وفي أرقى ميادين القاهرة، بنيت الجامعة الأمريكية مزودة بإمكانات مادية وفنية - وليست علمية - هائلة.

وفي معظم المدن الكبرى في مصر بنيت أيضاً مدارس تغريبية وتنصيرية وصار خريجوها في الأعم الأغلب طلائع للتحويل التغريبي،

(١) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص ٧٢، دار الفكر بدمشق، ١٤٠٢هـ.

كما بنيت أخيراً جامعة سنجور [١] في الإسكندرية معتمدة اللغة الفرنسية لغة أولى، رافضة الاعتراف باللغة العربية.

ونحن نعتقد أن ما سمي بقانون تطوير الأزهر إنما كان حلقة علمانية، حين وجد أساتذة شيوعيون يدرسون في الأزهر، وحين أفرغت الكليات الأصيلة وهي الشريعة وأصول الدين واللغة العربية، من الطلاب المتفوقين، لولا أن لَطَف اللَّه بالأزهر على يد الشيخ الجليل عبدالحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق رحمه اللَّه رحمة واسعة !!

وفي مواجهة الانبعاث الأزهري الذي تألّق في مواجهة الحملة الفرنسية، وقاد الأمة إلى مقاومة الاحتلال الفرنسي بضراوة من خلال ثورتي القاهرة الأولى والثانية وما بينهما من انتفاضات فردية مستمرة.. في مواجهة هذا الانبعاث الذي كان من الممكن أن يقود مسيرتنا إلى الطريق الصحيح للمواجهة الحضارية بعد هذه المواجهة العاصفة بين الحضارة الأوروبية الصاعدة والحضارة الإسلامية التي كانت تحمل على كاهلها بقايا المماليك المتآكلين، وشيخاً عثمانياً هرماً يرفض الأخذ بسنن اللَّه في التقدم الحضاري الشامل.. بعد هذه المواجهة أدرك الغرب خطورة الانبعاث الإسلامي فلجأ إلى طريقته الذكية التقليدية الناجحة حتى اليوم، وهي إحداث البديل المبدد للطاقة الصارف عن الحل الإبداعي الحضاري الأصيل.. فجاء بالتغريب ملفعاً بأردية مضللة يقوده الألباني محمد علي باشا..!!

---

(١) كان سنجور رئيس جمهورية السنغال السابق من الأطفال الذين وقعوا فريسة للتنصير مع أن أبويه وإخوته مسلمون، ولهذا احتفل به وأصبح رئيس جمورية نصراني لدولة إسلامية.

وقد اتجه الرجل بسلاحه الغربي المستورد ضد إخوانه المسلمين في نجد يستأصلهم ويحارب انبعاثهم الإصلاحي الإسلامي على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب، ويدمر مدنهم ويأسر أبناءهم وشيوخهم، ويذبح كثيرين منهم... كما اتجه بسلاحه - كذلك - ضد الدولة العثمانية، بدلاً من أن يمد لها يد التعاون على الإصلاح وعبور الأزمة الحضارية، وفق منهج حضاري سليم (١).

وحسبنا للدلالة على تمكين أجهزة التغريب العلنية والسرية من توجيه المسيرة الحضارية في مصر ضد مصلحة مصر الحقيقية، وضد تقدمها الصحيح وضد احتياجاتها الحقيقية.. حسبنا للدلالة على هذا أن نشير إلى هذا التقرير الذي صدر بالجريدة الرسمية بمصر (٢) عن البعثات الدراسية الخارجية التي قامت بها وزارة التعليم العالي بمصر في سنة ١٩٧٣م.

فبينما تشكو الأمة العربية من ضعف في النواحي العلمية والتكنولوجية، لانجد العلوم المتعلقة بهاتين الناحيتين تحتل أكثر من خمس بعثات من بين أكثر من مائتي بعثة، فتحتل دائرة التربية وطرق التدريس والعلوم الإنسانية - وهي تلك العلوم التي يجب أن تتصل بالبيئة والتراث والوضعيات المحلية المختلفة - تحتل هذه الدائرة أكثر من مائة وعشرين بعثة من بين البعثات المذكور عددها سابقاً، أي أنها تزيد عن النصف من البعثات حتى ليخيل للمرء أن مخططي البعثات يعمدون إلى مزيد من التمييع والتَّضليل بالنسبة للعملية التربوية في

(١) د. عبد الحليم عويس، المسلمون في معركة البقاء، ص ١١٠.
(٢) انظر جريدة الأهرام المصرية، ٨ يونيو ١٩٧٣م.

العالم العربي.. نعم في (العالم العربي)؛ لأن هؤلاء الأساتذة غالباً ما يوفدون إلى جامعات عربية ويتركون بصماتهم فيها..

ونجد مثلاً فروع الطب والتمريض والصيدلة على أهميتها لا تحتل أكثر من عشرين بعثة من بين البعثات الموفدة للعام ١٩٧٣ - ١٩٧٤م.

أما فروع القانون (الحقوق) وحده، فإنه يفوز بعدد موازٍ للعدد الذي نالته جميع فروع الطب والصيدلة والتمريض.. أي قريباً من عشرين بعثة.

وبقية البعثات، أي حوالي ٣٥ بالمئة توزع بين كليات التجارة بأقسامها المختلفة، وبين بعض المعاهد المتخصصة كمعهد البريد ومعهد القطن ومعهد الفنادق وغير ذلك.

ومن النظرة المحايدة يتضح عدم حياد القائمين على البعثات كما يتضح سيرهم في التخطيط المدمر لما تبقَّى من عناصر الصمود في هذه الأمة (١).

فلم تكن هذه البعثات يوماً تحديثية تسد حاجة البلاد، وتعمل على تحقيق الفوز التكنولوجي الذي نبتغيه، بل كانت في مجملها بعثات تغريبية تقوم بدراسة الشعر والأدب والنقد والنحو والتربية... بل الفقه والتفسير والحديث، ولا ضير في وجود عدد محدود من البعثات لا تقدم ولا تؤخر في المجالات التطبيقية، إذ إنها لضآلة كمها وضعف كيفها لا تكفي لتطوير مدينة.. فضلاً عن بلد كمصر!!

(١) جريدة الاهرام عدد ٨ يونيو ١٩٧٣م المشار إليها سابقاً.

وهكذا كان التغريب هو الطريق المضمون لخسارة معركة التحديث، وكلُّ الدول التي تم تغريبها، أو اختارت طريق التغريب وانشغلت في قضاياها ظلت على تخلفها... بل وأخطر من ذلك أن «التغريب» يقضي على روح المقاومة في الأمة الشرقية، فيجعل استعمارها من قبل الدول الغربية المتفوقة أسهل، وحكمها أيسر، ويجعل استغلالها أعمق وأكبر عائداً... وأقل كلفة ومخاطرة.. (١)

والحقيقة أن بذور التغريب والانهزامية الحضارية تعود بدرجة كبيرة إلى هذه الحملة الفرنسية التي داست الأزهر بخيولها وقاومها الأزهر مقاومة شديدة، وقتل أحد طلاب الأزهر الشوام (سليمان الحلبي) قائدها الثاني بعد نابليون (كليبر) وحكم عليه التغريب الفرنسي الممثل لحضارة الحرية والإخاء والمساواة بحرق يده وهو حي وبقتله على الخازوق!!

هذه الحملة المشؤومة الفاشلة ذات دور كبير في وضع بذور التغريب في مصر... فقد استقطبت البغايا والأسافل والفواحش من النساء ليتدخلن مع الجنود الفرنسيين ويأخذن الأموال منهم، وترتفع شعارات تحرير المرأة من هذه المواخير المنشأة تحت راية نابليون وكليبر.. (٢)

يقول الجبرتي:

«كان ذلك التدخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في إخفائه.

فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس ببولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات

(١) محمد جلال كشك، المرجع السابق، ص ١٥ الطبعة الأولى.
(٢) محمد جلال كشك، المرجع السابق، ص ٣٩٧، ٣٩٨.

صرن مأسورات عندهم، فزينوهن بزي نسائهم وأجروهن على طريقتهم في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر، ولما حل بأهل البلد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في حوزة الفرنسيس ومن والاهم...الخ» (١).

ولكن (لويس عوض) داعي دعاة التغريب والعلمانية ومؤرخ المدرسة الاستعمارية يصر على أن هذه الظاهرة البغائية الانحلالية هي من مظاهر التحرر في المظهر والسلوك بين نساء مصر، وأن هذه الظاهرة عمت نساء مصر وبالذات الحرائر وربات البيوت!! ويعلق على تحليله الساذج المغلوط المفكر محمد جلال كشك فيقول:

لو كان الجبرتي يتحدث عن مجتمع الساقطات والفواحش بالمعنى الاجتماعي، لما كان هناك مجال للكلام عن الاحتشام واتّقاء العار، فهو إذن يتحدث عن الحرائر من ربات البيوت وبناتها من سيدات المجتمع. وهؤلاء ما كان يمكن أن يخالطن الفرنسيات والفرنسيين إلا برضاء الأولياء عليهن.

وهكذا نجد أن المجتمع المصري في تحرره - في رأي لويس عوض- تحولت نساؤه إلى بغايا يتعلقن بسترات جيش الاحتلال، وتحول رجاله إلى ديوثين يرضون بذلك (٢)!

وهذا هو تحرير المرأة على الطريق التّغريبية... وهذه هي البداية المشؤومة!! كما وضعت هذه الحملة المشؤومة بذوراً تغريبية أخرى عن

(١) محمد جلال كشك، المرجع السابق، ص ٣٩٩.
(٢) محمد جلال كشك، المرجع السابق، ص ٤٠٠.

طريق استقطاب بعض الخونة كالمعلم (يعقوب بن حنا) وغيره من الأقباط لوضع بذور الفتنة الطائفية. وكان يعقوب هذا محتقراً من أكابر الأقباط المحترمين، وكان البابا المصري ضده، وحتى أسرته تبرأت منه، إذْ كان سبّةً للمصريين والشرقيين عموماً، نموذجاً للعمالة للمستعمر الغربي [١] لكنه - وأمثاله من الخونة - قد استغلتهم الحملة الاستعمارية الفرنسية - على كل حال - لبذر بذور الفتنة الطائفية، وتحميل الأديان خيانة بعض المجرمين المحسوبين عليها، والأديان منهم براء !!

ولم تكد الحملة الفرنسية تخرج من مصر مدحورة غير مأسوف عليها بعد أن قاومها الشعب كله بقيادة الأزهر، حتى بدأت الجراثيم تنبت هنا وهناك متأثرة بالصياغة الأوروبية للحياة، تلك التي تختلط فيها المطبعة بالدعارة [٢]، وشعارات الحرية والإخاء والمساواة الصارخة (النظرية) باغتصاب الحرائر ونهب أموال الناس والهجوم على القرى الآمنة ليلاً، وقتل العلماء بمحاكمات عسكرية صورية، واصطناع العملاء من أمثال المعلم يعقوب، ونشر الفتن الطائفية بين أبناء الوطن الواحد، وحثّ الناس على خيانة أديانهم وأوطانهم!!.

ولما حكم محمد علي باشا (١٨٤٩م) مصر كانت هذه الأفكار المختلطة التي تشجعها الغرائز السفلى وعملية الانبهار الحضاري قد أينعت في

---

(١) محمد جلال كشك، المرجع السابق، ص ٤٢٤.

(٢) في أحد هوامشه ينقل الأستاذ محمد جلال كشك، عن «مورهيد» أن أول قائمة بالطلبات التي أرسلها بونابرت إلى فرنسا فور احتلاله القاهرة لحفظ معنويات الجند تتضمن مائة مومس فرنسية، ولم يكن بونابرت يرفض انتشار المومسات المختطفات من المصريات، بل كان يرفض الأنواع المبتذلة منهن فقط (البلديات ١١)

عقول بعض العسكرين والمثقفين. ومن هنا بدأ محمد علي في الاعتماد في نهضته على أسلوب التغريب وليس التحديث، وبدأ بإرسال البعثات التي لم تذهب إلى فرنسا وبريطانيا لتتتلمذ وتعاني مرحلة الإبداع الحضاري في نواحي التخلف التكنولوجية والتطبيقية والتنظيمية، وإنما ذهبت لتنقل إلينا نموذج (تحرير المرأة) عن طريق السُفور والاشتغال بالآداب الغربية والعلوم الإنسانية وفق التصور الأوروبي لها. وقد حمل كِبْر هذه الدعوة بإيجابياتها وسلبياتها ودون وعي حضاري رشيد، شيخ من صعيد مصر هو رفاعة رافع الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ/١٨٠١ - ١٨٧٣ م). وكان الشيخ رفاعة قد اقترب من علماء الحملة الفرنسية على مصر فأبصر ما عندهم من علوم حديثة غريبة عن المحيط الإسلامي والعربي والمصري، وكان لهذا يقول بدون وعي بحدود ما يؤخذ وما لا يؤخذ، وبدون إدراك عميق للشروط الحقيقية للنهضة ومعادلاتها الصعبة... كان يقول: «إن بلادنا لابد أن تتغير وأن يتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها» (١).

ولما ذهب رفاعة الطهطاوي إلى باريس واعظاً للبعثة المصرية التي أرسلها محمد علي (١٨٢٦ - ١٨٣١) لم يكتف بمهمة الوعظ بل درس الفرنسية ودرس علوم الحرب. والهندسة والمعادن والقانون، ولما عاد إلى مصر نشأت من حوله مدرسة مهتمة بعلوم الغرب ترجمت خلال أربعين عاماً أكثر من ألفي كتاب من عيون الفكر الفرنسي، كما قدم رفاعة ومدرسته الفكرية نموذج المثقف ورجل الدولة الذي مارس كل أنشطته

(١) د. محمد عمارة، تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة ص ٧٧ (كتاب الهلال، شوال ١٤٠٢ هـ) مصر.

التنويرية من خلال الدولة وأجهزتها، لأن دولة محمد علي كانت هي الجهاز التنويري الوحيد في البلاد [١].

ولم يعد الناس ينقسمون عند رفاعة الطهطاوي إلى أهل كفر وأهل إيمان مهما كان مستواهم الحضاري العارض متدنياً، وإنما ينقسم الناس عنده إلى أهل تحضر وأهل خشونة، فالناس عنده مراتب ثلاث:

١ - الهمل المتوحشون.

٢ - البرابرة الخشنون.

٣ - أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر[٢].

وهو يضع عدداً من الشعوب «المؤمنة» بالإسلام في مرتبة «البرابرة الخشنين»، بينما يضع الأوربيين في مرتبة «أهل الأدب والظرف والتحضر والتمصر »، وهو يعتبر مخالطتهم والتفاعل معهم «المغناطيس الذي يجلب المنافع... فمخالطة الأغراب، لا سيما إذا كانون من أولي الألباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب» [٣]. وهو يعتبر أن الصلات التي عقدت بين مصر وبين الحضارة الأوربية، في عهد محمد علي باشا، واحدة من أهم الإنجازات، ويقول في ذلك: «فلو لم يكن لمحمد علي من المحاسن إلا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبية بعد أن ضعفت الأمة المصرية بانقطاعتها المديدة والسنين

(١) د. محمد عمارة المرجع السابق، ص ٧٩.

(٢) د. محمد عمارة، المرجع السابق ص ٨٠، نقلاً عن الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي ١٦/٢.

(٣) د. محمد عمارة، المرجع السابق ص ٨٠، نقلاً عن المرجع السابق ج١ ص ٩٨. (ونحن نعتقد أن دراسة موضوعات الألفي كتاب المترجمة مؤشر خطير على الانحراف).

العديدة، لكفاه ذلك، فلقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد، وآنَسَهَا بوصال أبناء الممالك الأخرى والبلاد، لنشر المنافع العمومية واكتساب السبق في ميدان التقدمية.. (١).

وقد دعا الطهطاوي إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل.. ولكن في إطار الشريعة لا في سياق الأنساق الاجتماعية المتخلفة التي رانت على الحياة الإسلامية قبل عصور الوهن والضعف... -

كما تناثرت في فكر الطهطاوي مضامين اجتماعية اشتراكية، وليبرالية سياسية، ومحاولة ساذجة للجمع بين الدستور الفرنسي والقواعد التشريعية المستقاة من الكتاب والسنة، وحديث عن الرقص يرفضه الإسلام، ودعوة لتضخيم التاريخ الفرعوني على حساب التاريخ الإسلامي.

لكننا - مع ذلك - نؤمن بأن رفاعة الطهطاوي، شأنه شأن المدرسة الإسلامية التي احتكّت بالغرب وجاهدت للحفاظ على الذاتية الإسلامية، لم يسقط في حفرة التغريب التي سقط فيها قاسم أمين ولطفي السيد وتوفيق الحكيم وطه حسين وأمثالهم، فضلاً عن المستغربين غير المسلمين الذين لا يمكن تجاهل بواعثهم الحقيقية من أمثال سلامة موسى، ولويس عوض وغالي شكري وأمثالهم..!!

لقد اختل الميزان في يدها في بعض الاجتهادات وأخطأت في علاج بعض قضايا التفاعل الحضاري ولم تكن في المستوى الراقي الذي

(١) د. محمد عمارة: المرجع السابق، ص ٨٠، ٨١، نقلاً عن الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي ٤٤١/١، ٤٤٢ (وأين صلتها بالعالمين العربي والإسلامي؟ أليست ضرورية كذلك!!).

ارتقى إليه عبد الرحمن بن خلدون أو مالك بن نبي[١]، أو محمد إقبال [٢]، أو عبد العزيز جاويش [٣]، أو علي شريعتي [٤]، أو بديع الزمان سعيد النُّورسي [٥] الذي اغترف من النَّبع القرآني الصافي أروع اغتراف، ووقف به صامداً أروع صمود في وجه مصطفى كمال الذي قاد أحطَّ عملية تغريب في العالم الإسلامي إبَّان سقوط الخلافة العثمانية وتكالب الاستعمار الصهيوني الصليبي عليها..!!

أقول: إنه مع وجود بعض الخلل على النحو الذي ذكرت في مواجهة رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني، ومدارسهم، في المواجهة السليمة للحضارة الغربية الزاحفة، إلا أن هذه المدرسة بقيت ذات وعي بقيمة حضارتها الإسلامية، وبقيت منتمية إلى أصول الإسلام ونصوصه القطعية، مؤمنة بأن الإسلام هو الهوية التي لا يجوز المساومة عليها... ومن هنا فإن رفاعة الطهطاوي - كما يقول الدكتور محمد عمارة - قد وضع عدداً من التحفظات، ونبه على الفروق بيننا وبين

---

(١) مهندس جزائري عاش في فرنسا ثلاثين سنة ومع ذلك أدرك شروط النهضة الصحيحة فكتب عدة دراسات مختارة أهمها: شروط النهضة، ميلاد مجتمع، وجهة العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة وغيرها.

(٢) شاعر باكستاني (هندي) مسلم كان يسمي الحضارة الأوروبية بالعاهرة المومس مع أنه عاش فيها مدة طويلة وقرأ فلسفتها فأتقن لغتها الأولى وله شعر رائع.

(٣) كان أزهرياً درس بجامعة أكسفورد في إنجلترا (١٩٠٣ - ١٩٠٦)؛ وكان من أفضل الناس تمسكاً بدينه ولغته وحضارته. محارباً للإنجليز سياسة وحضارة.

(٤) من أكبر فلاسفة الشيعة الفقهين بعلوم الحضارة والاجتماع، ومن أفضل أعماله في هذا السبيل كتابه العودة إلى الذات، نشر دار الزهراء بالقاهرة.

(٥) واجه بديع الزمان سعيد النورسي أحلك عصور التاريخ الإسلامي الحديث، وهي فترة سقوط الخلافة العثمانية في تركيا بقيادة مصطفى كمال الملقب زوراً بـ «أتاتورك» /أي أبو الأتراك/، وكان سلاحه الحياة في ظلال النور وإخراج رسائل النور من معتقلاته ومنافيه الإجبارية وبواسطتها - وهو أعزل وحيد - أعاد حركة الإسلام في تركيا، ويتأثر بأفكاره أكثر من خمسة ملايين تركي!!.

أوروبا، وحدد أن ميدان الأخذ والاستلهام هو علوم الدنيا وفنونها، دون علوم الدين.. فإعجابه بالعلوم والمعارف الدنيوية لم ينسحب على فلسفتهم، فتحفظ عليها قائلاً: «غير أن لهم في العلوم الحكمية - (الفلسفية) - حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية.

وترجمة الطهطاوي للقوانين الأوروبية - والفرنسية خاصة - بطلب من الدولة لم تجعله يغفل عما في التراث الإسلامي من فقه في المعاملات، جدير بأن نحييه، ونطوِّع قواعده لظروف الزمان والمكان وما حملت من تجدد في المصالح وتغيرات في العادات والأعراف.. فيتحدث عن هذا الجانب من تراث الأمة فيقول: «والمعاملات الفقهية، لو انتظمت، وجرى عليها العمل، لما أخلّ بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحال، مما هو سهل على من وفّقه اللّه من ولاة الأمور المستيقظين».

ثم - وهذا مهم جداً - فإن إعجاب الطهطاوي بنمط التطور والتحضر الأوروبي، لم يحمل شبهة دعوة إلى أن يتبع الشرقُ الغربَ... بل لقد كان الرجل يقظاً إلى خطر تلك النفسية الاستعمارية التي تريد احتواء الشرق واستعماره بواسطة التبعية الحضارية، وهو وإن لم يرفض مدنية الغرب تبعاً لرفضه استعماره، فإنه ميّز بين العلاقات الحضارية وبين الضم والتبعية والإلحاق [1].

وفي موضع آخر يقول الدكتور عمارة بأسلوب مباشر عن رفاعة: ويشهد على أن هذا كان موقف هذه النهضة من هذه القضية ما نراه في فكر الطهطاوي.. ذلك الذي انفتح على «التمدن الأوروبي» كل

(١) محمد عمارة، تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة، ص ٨٩ - ٩١.

الانفتاح، وأنجز على درب الاستفادة منه أعظم الإنجازات، وذلك دون أن يفقد قيمه الإسلامية الخاصة - بل والأشعرية والمحافِظَة - أو يفقد خصائصه الحضارية العربية الإسلامية (١).

وأياً كان الأمر فإن تجربة محمد علي التحديثية لم تلق النجاح المنشود لأنها تبنت التغريب الجاهز المعلب واختلطت لديها المعايير، ولم يكن لديها وعي اليابانيين أو اليهود...!

وقد استغله الأوروبيون - في الحدود التي سمحوا له فيها - بالنهضة التقدمية - فجرّوه إلى حروب خاسرة ضد إخوانه في نجد والسودان وضد الدولة العثمانية ، ودفعوه على نحو ما دفعوا غيره بعد ذلك للامتداد السياسي والعسكري دون أن يكون قد امتلك النموذج الصالح الذي يمتد بطريقة عفوية وتلقائية في محيطه الحضاري.

ولسنا نتفق في هذا الموقف مع الدكتور محمد عمارة في أن أسباب إخفاق محمد علي أن صورة القيادات الدينية قبيل عصره وفي السنوات لأولى من حكمه، لم تكن لتفرض الاحترام على من هو في مثل طموح هذا الرجل..!

فالحق أن هذه القيادات الدينية - حتى مع وضعيتها المبالغ فيها هذه - قدمت نماذج رائعة في فترة الحملة الفرنسية، كما أنها قدمت نماذج رائعة في مواجهة استبداد المماليك، وحاولت الوقوف ضد استبدادية محمد علي وتوجُّهه الاندفاعي الغربي.. وقد كان بإمكانه التفاعل معها - لو شاء - لكنه آثر الحكم المطلق، وقضى - بأسلوب تآمري خبيث -

(١) محمد عمارة، المرجع السابق، ص ١٢٢.

على السيد عمر مكرم (١١٦٨ - ١٢٣٧) وتنكَّر لكل العهود التي كان قد أعطاها لمن وقفوا معه من القادة الإسلاميين حتى ملك زمام مصر.

وأخطر من ذلك أنه - وهو يتجه وجهته التغريبية - قد عمد إلى عزل الأزهر وإنشاء مؤسسات تربوية وتعليمية بعيدة عن التوجه الإسلامي... فكان منهجه امتداداً طبيعياً لمنهج الحملة الفرنسية على مصر.. وهو المنهج الذي يقوم على ترك الأزهر يموت تلقائياً ويتجاوزه الزمان، بينما تقوم حوله مؤسسات تغريبية حديثة تشلّ فاعليته وتجعل أبناءه في مؤخرة الصفوف !!.

واستمراراً على منهاج القضاء على رسالة الأزهر وعزله عن مصر والعالم الإسلامي وهو المنهج الذي أرست قواعده الحملة الفرنسية وتبناه محمد علي... استمراراً على هذا المنهاج وقف اللورد كرومر الحاكم الإنجليزي لمصر ومعه دانلوب مستشار وزارة المعارف المصرية يفكران في أساليب أخرى فاعلة تقضي على الأزهر قضاءً كاملاً وانتهى بهم تفكيرهم إلى أنه لا بد من أحد أمرين:

إما تطوير الأزهر وقبوله للمنهج الغربي في التعليم ومزاحمة العلوم الدينية بأكثر منها من العلوم الدنيوية.

وإما إنشاء مدارس وجامعات مدنية تدرس علوم الدنيا فقط ولا صلة لها بالدين.

وقد وجدوا أن الغرض الأول مستحيل التحقيق في ذلك الوقت، فاتجهوا إلى الغرض الثاني فأنشؤوا مؤسسات التعليم المدني وحاولو أن

يرفعوها فوق التعليم الديني، حيث أغدقوا على خريجيها وأساتذتها الأموال والمرتَّبات المغرية، بينما ضيقوا على خريجي الأزهر فكان مرتبهم ثلاث جنيهات فقط في الشهر... هذا من الناحية المادية، أما من الناحية المعنوية فقد لجأ الاستعمار الإنجليزي إلى استخدام أجهزة الإعلام في التنفير والسخرية من طالب الأزهر وأستاذه، وراحوا يفرقون في المدارس بين مدرسي الدين واللغة العربية، وبين مدرسي المواد الأخرى تفرقة مرسومة، الهدف منها هو التنفير من التعليم الديني ومحاصرته (١).

وعلى الدرب نفسه الذي يهدف إلى إجهاض دور الأزهر وخنق رسالته الإسلامية قام المنصِّرون والمستغربون بنشر عشرات المدارس والكليات في ربوع مصر... ومن أهمها المدارس والكليات (البروتستانتية) التالية:

١ - كلية التجارة بالعطارين بالإسكندرية.

٢ - مدارس الأمريكان بالقاهرة.

٣ - مدارس الأسقفية الإنجيلية بسراي القبة.

٤ - الجامعة الأمريكية (التي أنشؤوها لمزاحمة الأزهر).

٥ - كلية البنات الأمريكية بشارع رمسيس.

٦ - مدرسة الأزبكية للبنات بالقاهرة.

٧ - كلية البنات الأمريكية بأسيوط.

---

(١) سعد الدين السيد صالح، احذور الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، ص ١٦٦، نقلاً عن الأزهر ودوره في تكوين العالم الثالث للدكتور محمد.

٨ - كلية البنات الأمريكية بالأقصر.

كما أنشؤوا مدارس وكليات (كاثوليكية) منها:

١ - المعهد الشرقي بدير الدومنيكان بالعباسية بالقاهرة.

٢ - معهد دار السلام بكنيسة دار السلام بمصر القديمة.

٣ - المعهد الفرنسي بالمنيرة.

٤ - مدارس الفرنسيسكان بالفجالة.

٥ - مدارس الفرير بالخرنفش [١].

وغير هذه توجد عشرات المدارس المدعمة من الفاتيكان، ومن فرنسا، ومن شتى هيئات التنصير العالمية التي تدير آلاف المدارس والكليات في العالم، ويعمل فيها مئات الألوف من المعلمين غير المسلمين والمسلمين!!

وقد نجح دانلوب في جعل اللغة الإنجليزية لغة التدريس لسائر العلوم كالرياضيات والتاريخ والجغرافيا والرسم، وبذلك ضيق على اللغة العربية وحاول القضاء عليها، كما جعل الدين مادة ثانوية ليس لها من الأهمية ما لمادة الرسم، أو الأشغال، أو حتى الرقص البلدي في معاهد البالية، وحاول أن يحرِّر كتب المطالعة واللغة العربية من كل ما له علاقة بالدين [٢].

فلما جاء عهد الاستقلال السياسي، ونجحت حركة يوليو ١٩٥٢م في الاستيلاء على السلطة بمصر، بدأ الانتقال إلى الشطر الثاني الذي

(١) ينظر في التعرف على هذه المدارس: إبراهيم خليل أحمد: التبشير والاستشراق طبع مصر ص ٣٩ وغيرها، وينظر عمر فروخ: الغارة على العالم الإسلامي (شاتليه)، طبع مصر، ص ٦٨ وما بعدها، وينظر سعد الدين صالح، احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ص ٧٥.

(٢) سعد صالح: المرجع السابق ص١٦٦، ١٦٧.

عجز الاستعمار عن الولوج فيه بطريقة مباشرة، وهو القضاء على الأزهر نفسه عن طريق اختراقه من داخله، وتوجيه خريجيه النابهين إلى المواد العلمية المحايدة، وتحويلهم إلى أطباء ومهندسين وزراعيين وصيادلة ومحاسبين عاديين جداً.

وبصرف النظر عن الكلمات الكبيرة التي وردت فيما يسمى بـ (قانون تطوير الأزهر، فإن شيئاً منها لم يتحقق في الحقيقة، فلم يذهب أطباء، ولا مهندسون أزهريون لنشر الإسلام في مجاهل أفريقيا أو أدغال آسيا، بل كان حسب كثير منهم أن ينسى الناس أزهريتهم وأن تقترب قامتهم من طب القاهرة وهندسة عين شمس!!

وقد لايكون المخطط قد نجح تماماً - بلطف اللَّه ورحمته بالمسلمين وبالأزهر ثم برجال عمالقة من أمثال الشيخ عبد الحليم محمود والشيخ جاد الحق علي جاد الحق وغيرهما - لكن المعركة مستمرة، وكتائب التغريب ماضية في طريقها تقفز من معسكر الماركسية إلى معسكر الليبرالية العلمانية بسرعة هائلة، وتركب أيّ موجة تقترب بها من هدفها وهو فرض التغريب والقضاء على إسلامية مصر، بعد أن قامت بتغريب تركيا بطريقة جنونية بواسطة رجلها الشاذ مصطفى كمال!!.

وفي العصر الماركسي أو الاشتراكي أُهين الأزهر كثيراً من الإهانات، وكانت رموزه موضع سخرية في الأفلام والإذاعات وشاشات التلفاز، بل وقد سُبّوا على ألسنة المسؤولين ووصِمُوا بأقبح الألفاظ لمعاداتهم للزحف الأحمر الماركسي!!

فلما سقطت الماركسية بكل ظلالها المادية والإلحادية، وظهرت بدعة النظام الدولي الجديد، وكان للعلماء دور رائد في مقاومتها - كان المأمول أن يكف التغريب وسدنته الماركسيون والعلمانيون وأن يعودوا إلى رشدهم بعد سقوط إمبراطورية الإلحاد، وسقوط فكرة «الحتمية التاريخية والمادية» المتخلفة!!.

لكن الأمر جاء على العكس من ذلك، فقد بدأت موجة حادة تحت مسميات الحرب على (الأصولية) وعلى (المتطرفين) الذين قال عنهم الرئيس محمد حسني مبارك نفسه: «إن مجموع جرائمهم في سنة كاملة في مصر لا تساوي جرائم المتطرفين في أمريكا في أسبوع» (١) - ومع ذلك تُضَّخم جرائُمهم ويتَّكئ المستغربون عليها لتشويه الإسلام والتحريض على ملاحقة كل العاملين له، والغيورين عليه، بصرف النظر عن اعتدالهم أو غلوهم، فهم جميعاً يضمرون عدم الاعتدال (!!)... ويجب محاكمتهم على ما في قلوبهم وضمائرهم (!!).... وهذه هي عدالة العلمانية الديمقراطية (!!).

ولقد تكالب على إهانة الأزهر ورجاله عبر مقالات كثيرة، وفي أكبر الصحف، عدد كبير من حَمَلَة راية التغريب والعلمنة... وكان لمجمع البحوث الإسلامية ولفضيلة شيخ الأزهر النصيب الأوفر في هذه الإهانات... كما أن الكاتب الصحفي إبراهيم عيسى كان دائماً يوجه أكبر اتهاماته لتشويه الشيخ محمد متولي الشعراوي والشيخ محمد الغزالي، وبقية رموز الأزهر والدعوة الإسلامية المعروفة على الساحة الإسلامية.

---

(١) الاهرام - عدد الجمعة - حديث ابراهيم نافع مع الرئيس حسني مبارك بتاريخ ١ اكتوبر ١٩٩٣.

وإن قليلاً جداً من هؤلاء المحللين والمشوهين للأزهر ورجاله من ذكر في كتاباته وتحليلاته، أن السبب الأكبر في وجود جماعات إسلامية متطرفة تعطي حق قياد زمامها فكرياً وحركياً لأغرار قليلة العلم، إنما يرجع إلى هذه المؤامرة الطويلة للقضاء على دور الأزهر، وعدم تمكينه من رسالته، وترك الفاعلية للقوى المستغربة المحاربة لدين الأمة وحضارتها، التي تحيط بالأزهر إحاطة السِّوار بالمعصم في الإعلام والمدارس والجامعات الأجنبية والمصرية (!!).

وبدلاً من مواجهة هذه الحقيقة الناصعة والحث على علاجها، انهالوا باللّوم والتقريع على الأزهريين ودعاة الإسلام، فتارة يُقال إنهم: وافقوا الحاكم وسايروه وأصدروا الفتاوى من أجل التكيُّف مع الأوضاع.. فإذا رفضوا موافقة الحاكم، وتكلموا وفق اجتهاداتهم وفقههم الصادق بدينهم، وشهدوا بما يعلمون حق العلم - مصيبين أو مخطئين - مثلما شهد الشيخ صلاح أبو إسماعيل والشيخ محمد الغزالي والشيخ مزروعة في قضية اغتيال العلماني فرج فودة.. فالويل - كذلك - لهم والتقريع يتم بالمستوى نفسه!! فعلماء الإسلام ملومون إن كانوا مع السلطان أو كانوا مع القرآن... والويل لهم إن شرّقوا أو غرّبوا..!! فليس المهم الصواب أو الخطأ وإنما المهم تشويههم وإجهاض دورهم!!.

ولأننا لانستطيع استقصاء كل صور إهانة الأزهر ورموزه في الأحقاب الأخيرة، ولأنها معروفة مذكورة في مظانِّها من التاريخ الحديث والمعاصر.. فنحن نكتفي بإيراد هذه المقتطفات من مقالة كتبها فرج فودة (أحد أقطاب العلمانية والتغريب) يخاطب فيها شيخ الأزهر

(آنذاك) الشيخ جاد الحق علي جاد الحق بمناسبة تصديه لزمرة من المارقين المنادين بفصل الدين عن الدولة.. يقول فودة [١]:

لشيخ الأزهر أن يحمد اللّه كثيراً على أن الشريعة ليست مطبقة في مصر، لأنها لو طبقت لاستحق أن يجلد تعزيراً بتهمة القذف!! وأغلب الظن أن ذلك كان سيحدث على ملأ، وأن جسده الرهيف كان سيعجز عن تحمل قسوة الجلاد، للجسد الإنساني أحكام، وشتان بين الجسد الذي ذاق حلاوة السمن البلدي وطراوة الزيد الهولندي، وبين جسد عمر ابن الخطاب الذي اسود جلده من أكل خبز الشعير بالزيت، أو أجساد من كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، أما جريمة شيخ الأزهر، وهي في شرع الإسلام جريمة بكل المقاييس، فهي قذف بعض خيار المسلمين في خطابه للأستاذ هويدي، ونعتهم بالخروج عن الإسلام، وبالعمالة للقوى المعادية للإسلام!!..

وما ضرنا أن تسكن في قصر منيف، وما ضرنا أن تحصل على مرتبك من أموال دولة المسلمين ، تلك التي تنعتها بأنها ربوية، وتصف بعض مصادر دخلها بأنها آثمة لأنها تأتي من المشروبات الروحية، وما ضرنا أن نسمعك تقرأ في المناسبات الدينية خطباً مكتوبة يملؤها نطقك بالأخطاء النحوية... وما ضرنا هذا كله، لكن الضر كل الضر أن تتصور أنك يمكنك أن تخيف، وأنه بمقدورك أن تمنع كتاباً هنا وتصادر رأياً هناك، وأن تتخيل أنه بيدك خزائن الدين، وأن بيدك بمفردك صكوك الغفران، توزعها كما تشاء، فتغفر لمن تشاء، وتكفرٌ من تشاء..

---

(١) لم يكن فرج فودة قبل أن يهلك، ولا أمثاله حتى اليوم، قادرين على استعمال مثل هذا الأسلوب الحقير مع أصغر قسيس، فضلاً عن أحد كبار رجال الكنيسة.

ثم ختم فرج فودة مقاله مهدداً شيخ الأزهر بقوله:

احمدِ اللَّه يا شيخ الأزهر على العيش الهنيء، والطعام المريء، واذكره واشكره كثيراً على تخلف المسلمين، لأنه المحافظ لمنصبك!! ولا تتخيل للحظة واحدة أن أحداً سوف يسمح لك برئاسة محاكم التفتيش، وبالاتهام والقمع، وبالتهديد والمنع. واصمت نصمت، وكف نكف؛ لأنك إن عدت عدنا، وإن قلت زدنا، واقرأ - عافاك اللَّه - قبل أن تكتب، فلعلك إن قرأت يفتح اللَّه عليك باباً من أبواب العلم والاجتهاد[١] .

هذا.. وفي الوقت الذي يهبط فيه فرج فودة بأسلوب حواره إلى هذا المستوى الرديء مع الرجل الأول في أكبر الجامعات الإسلامية وأقدمها في العالم، تجاوباً مع ما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون من ضرورة الحط من كرامة علماء الدين الإسلامي في أعين الناس إضراراً برسالتهم التي كان من الممكن أن تكون عقبة كبيرة في طريق السيطرة اليهودية العالمية [٢].

في هذا الوقت نفسه يجرد فرج فودة قلمه - بكل قوة - للدفاع عن رجال الدين من الأقباط ويتحدث عنهم بكل إجلال، ويتكلم عن البابا شنودة بكل تكريم، ويطالب لهم بحزب ديني لأنهم منضبطون حتى في ردود أفعالهم، وليسوا كعلماء الإسلام الهمج الذين لا يستحقون أن يكون لهم حزب إسلامي.. يقول:

إنه على العكس من تمزق التيار السياسي الإسلامي إلى أجنحة مختلفة وربما متصارعة، وتوزع ولائه بين قيادات متعددة ومختلفة يبدو

(١) جريدة الأهالي عدد ٣٣ (مارس ١٩٨٨م).

(٢) انظر الخطر اليهودي: بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسي، ص ٢٠٤.

التيار السياسي القبطي متماسكاً بصورة لم تحدث من قبل، كما أنه يدين بالولاء لقيادة واحدة شرعية هي (البابا)!!.

وعلى الرغم من اعتراض الكاتب على رجال الدين للعمل السياسي في كلٍ من الجانبين الإسلامي والقبطي، إلا أنّ توحُّد التيار السياسي القبطي تحت قيادة غير مختلف عليها يمثل نقطة إيجابية واضحة، لأنه إذا لم يكن ممكناً التحكم في (الفعل الإسلامي) فإنه يمكن التحكم في (رد فعل القبطي) من خلال إمكانية التفاهم مع قيادته، ومساحة التفاهم واسعة من منطلق إحساس الأقلية بالخطر، وسعيها المبرر لتحجيم المشكلة [١].

ونحن نرفض أدنى إهانة لرجال الدين الأقباط في بلدهم مصر.. بل نرفض كذلك أدنى إهانة للأقباط سواء كانوا رجال دين أم لم يكونوا... لكننا ندين فرج فودة وأمثاله من دعاة الفتنة الطائفية والتفرقة العنصرية ونطالب باحترام علماء الإسلام أيضاً فضلاً عن احترام شيخ الأزهر الذي يجلُّه أكثر من مليار مسلم، ويتبوأ من نفوسهم موقع الوالد والمعلم والمرشد... دون قداسة أو كهانة... فلا كهانة في الإسلام، ولا عصمة لأحد بعد رسول الله (ﷺ)!!.

إن موقف الكتلة العلمانية التغريبية المصرية [٢] المعاصرة من الأزهر ومن رموز الدعوة الإسلامية، إنما هو استمرار على الطريق نفسه..

---

(١) د. صلاح الصاوي، المواجهة بين الإسلام والعلمانية ص ٨٤، ٨٥ (نقلاً عن حوار حول العلمانية: ص٧).

(٢) تراجع جرائد ومجلات الأهالي وروز اليوسف وصباح الخير وكتابات عبد المعطي حجازي وغالي شكري وحسين أحمد أمين وسعيد عشماوي وإبراهيم عيسى وخليل عبد الكريم (الماركسي) وغيرهم من الذين يتجرؤون على علماء الإسلام ويعجزون تماماً عن المساس بأي رجل دين مسيحي!!.

الطريق الذي بذرت بذوره الحملة الفرنسية حين داس نابليون الأزهر بخيولة، وحين شنق وسجن عشرات من علمائه المخلصين وأذلهم أمام ذويهم وأمام الشعب... الطريق الذي عزل فيه محمد علي الأزهر عن الفاعلية الحية.. الطريق الذي صدر من أجل تكريسه قانون تطوير الأزهر.. الطريق الذي يسعى - مستخدماً كل وسائل العصر التربوية الإعلامية - من أجل القضاء على الذات الإسلامية الإيجابية القادرة على الإبداع الحضاري، والمؤهله لمحاورة الحضارات وليس الذوبان فيها والتبعية لها والتضحية برسالتها التي ابتعثها اللَّه من أجل تبليغها الشهادة على الناس بموازين العدل الثابتة التي لا تتبدل وبالحق المطلق الذي يقره النقل والعقل...

ثانياً

فتنة الحرب على الإسلام

باسم حقوق الإنسان

الطبيعة الإنسانية للإسلام

(مقارنة لحقوق الإنسان في السلم والحرب

بين الإسلام واليهودية)

الطبيعة الإنسانية للإسلام

أولاً: التسامح والرحمة في الإسلام

في أسلوب حصر بلاغي يحدد الإسلام - في كتابه الكريم - وظيفة الرسول (ﷺ) على أنه رحمة لكل العاملين.

لقد خاطب اللَّه نبيه محمداً (ﷺ) بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١). وبقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ...﴾(٢).

فإن على المسلمين - مهما كانت أجناسهم أو أوطانهم - أن يتنبهوا إلى أنهم حملة راية العدل والرحمة بعد أستاذهم ومعلمهم محمد (ﷺ)، وعليهم أن يتنبهوا إلى أن الأمانة التي ائتمنهم اللَّه عليها وهي (البلاغ للناس بالقرآن)، إنما هي نور للناس جميعاً إذا آمنوا بها، لا فرق بين أسود وأبيض.. يقول اللَّه تعالى: ﴿... قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣).

ويُستنتج من هذا أن المسلمين مسؤولون عن إنقاذ البشرية جميعها، فحتى لو تأجَّجتِ الأحقاد والعنصريات في صدور أعدائنا، فالمسلمون

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.
(٢) سبأ: ٢٨.
(٣) المائدة: ١٥- ١٦.

لم يبعثهم اللّه ليواجهوا حقداً بحقد، ولا عنصرية بعنصرية، بل عليهم أن يحافظوا على راية العدل والتسامح والرحمة مع الإنسانية، وألاَّ يخضعوا لاستفزازات أعدائهم التي يرومون من خلالها إلى زحزحتهم عن مبادئهم.

ولعله من أكبر آيات التسامح الإسلامي والشعور بالمسؤولية الإنسانية، أن العلماء والدعاة المسلمين عندما يعرضون لقضايا الخلل الإنساني، لايصدرون عن شعور عنصري يحصر علاجهم في المحيط الإسلامي أو القومي، بل يعملون على حلّ مشكلات حضارات العصر الحديث كلها، دون أن يحصروا حلَّ المشكلات في الدائرة الإسلامية أو العربية أو التركية وحدها، إنما يعرضونها ليحلوا بها مشكلات الحضارة المادية الحديثة كلها... تلك الحضارة التي حبسها (العقل) في إطار (المادة) و(المنفعة) و (النسبي)، وأصبحت عاجزة عن إدراك الكمال والجمال في الروح والمطلق والغيب وضرورة الإيمان بالكينونة الإنسانية، والعمل المشترك على استمرار التحضر الإنساني العام... الذي يضم المسلمين وغير المسلمين.

ولقد أدرك المسلمون أن هناك خللاً وقع في المسيرة الإنسانية نتيجة التحيز للمادة على حساب الروح أو العكس.

ولقد أصاب هذا العجز الحضارة الإنسانية بالشلل النصفي؛ لأن الروح أو الغيب أو المطلق لا تنفصل عن العقل والمادة والنسبي!.. ولأن (المطلق) هو (المعيار) الأساس للحق، ورفض التعامل معه يعني رفض السير في طريق الحق، تحت ضغط الإيمان المشلول بالمادة والنسبي،

وهو الممر المؤدي إلى عبادة الإنسان لنفسه بديلاً عن عبادة اللَّه الذي يؤمن المسلمون بأنه وضع للكون والإنسان نظاماً من خلال الوحي والأنبياء، وهو نظام متطابق مع فطرة الإنسان.

لقد كان الإسلام - لأنه دين الفطرة والحق - حافزاً على تشكيل كيان متميز لم تستطع تقلبات الزمن والاحتكاك بالحضارات المختلفة أن تفتَّ في عضده على مرّ العصور.. فإن كل شيء في الإسلام يشكل وحدة، ويعبر في الوقت نفسه عن وحدة، ففروض العبادة تعبِّر بطريقة ظاهرة، بل بطريقة مادية عن التماسك والالتحام، فالمسلمون يسجدون في صلواتهم خمس مرات يومياً في ساعات متماثلة تقريباً، وفي اتجاه واحد نحو مكة.

وتعبِّر النية الدينية المصاحبة للعبادات لكل شعيرة عن وحدة الإنسان روحياً ومادياً.

ويسهم الإيمان - أيضاً - كما تسهم الشعائر في تضامن الجماعة الإسلامية وتجانسها، وتدفعها جميعاً نحو تحقيق عالميتها.

إن جماعة المؤمنين، - وإن قامت على الدين - فإنها نجحت في الصمود أمام التفكك السياسي، كما أن الروابط الدينية فوق التخوم والحدود بين الدول، لم تتأثر كثيراً بذلك التفكك السياسي[1].

يقول الكاتب والصحافي السويسري الكبير الذي هداه اللَّه إلى الإسلام (روجيه دي باسكيه): لقد جاء الإسلام إلى الناس لمساعدتهم

(١) أحمد عبد الوهاب - الحضارة الإسلامية وجهتها اللَّه والحضارة الغربية مركزها الإنسان، ص ٦٢، الناشر دار الصحيفة، القاهر ١٩٩٩ م (نقلاً عن مارسيل بوزار في كتابه إنسانية الإسلام).

على عبور هذه المرحلة الأخيرة من التاريخ العالمي دون أن يتعرضوا للضَّياع، وباعتباره الوحي الأخير في سلسلة النبوات، فإنه يقدم وسائل لمقاومة الفوضى التي تسود العالم حالياً، وإقرار النظام والنقاء في داخل الإنسان، وإيجاد التآلف والانسجام في العلاقات الإنسانية، وتحقيق الهدف الأسمى الذي من أجله دعانا الخالق إلى هذه الحياة. إن الإسلام يخاطب الإنسان الذي يعرفه معرفة عميقة ودقيقة محدداً بالضبط وضعه بين المخلوقات وموقفه أمام اللَّه (١).

إن الفكر الحديث - كما يتابع باسكيه حديثه - على العكس من ذلك، إذ ليس لديه معلومات دقيقة متّفقٌ عليها تتعلق بعلم الإنسان، ولم يحدث في حضارة أخرى غير هذه الحضارة الأوروبية المادية ماحدث من تجاهل بطريقة منظمة وشاملة للتساؤل عن الأسباب التي من أجلها نولد ونعيش ونموت، ذلك هو التناقض الذي وقعت فيه هذه الحضارة التي ارتأت منذ نشأتها أن تكون إنسانية، بمعنى أنها جعلت من الإنسان مصدر كل شيء ونهايته، إن هذه الحضارة التي أريد أن تكون إنسانية، إنما تقود في الوقت نفسه إلى نظام يحتقر الإنسان ويخدعه، ثم يدمّره في نهاية المطاف.

إن الإسلام بأبعاده الأفقية والرأسية قادر على عمل توافقٍ قوي بين الإنسان والكون المحيط به، وكذلك بين الإنسان واللَّه خالق كل شيء ومبدعه، إن الإسلام عالمي بكل معنى الكلمة. (٢)

---

(١) نقلا عن المرجع السابق، ص ٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٦٤، ٦٥.

ثانياً: الحوار.. والاعتراف بالآخر وحقوقه في الإسلام:

إن القرآن الكريم والسنة الشريفة - وهما وحي اللّه سبحانه إلى خاتم الأنبياء محمد بن عبد اللّه (ﷺ) - حافلان بالنصوص الكريمة التي تحدد علاقة المسلم بالآخرين من غير المسلمين، سواء كانوا يعيشون في داخل المجتمعات الإسلامية - كمواطنين غير المسلمين - أم كانوا خارج المجتمعات الإسلامية، لكنهم يرتبطون بالمسلمين بعلاقة سلام - عهد أمان دولي أو ثنائي - و حتى بعلاقة حرب ومواجهة مباشرة أجل:

ماذا يقول الإسلام - من خلال مصدريه الأصليين - في هذه القضية التي تشغل بال الإنسانية الآن، ويريد بعضهم أن يجعل الصدام الحضاري (أو الشذوذ) القاعدة، بينما يجعل (قاعدة الحوار والتفاعل الحضاريين) هي الشذوذ والاستثناء؟!!

إن الإسلام يرفض قلب الأوضاع على هذا النحو، وهو يجعل من التّعايش السّلمي قاعدة الحياة الإنسانية، مع الإيمان الكامل بفطرية الاختلاف وتنوع العقائد، بل ضرورة هذا الاختلاف الإيجابي لاستمرار الحياة وازدهارها إذا ما التزم الناس بضوابط الاختلاف والتنوع وآدابهما، وبالتالي أصبحا سبيل تكامل وثراء وازدهار، وليسا سبيل تصادم وقهر وانتحار.

ونحن نلحظ - في البداية - أن القرآن الكريم يتحدث عن نفسه، على أنه (الحق) الذي جاء مصدقاً (للحق) الموجود في الكتب السماوية الصحيحة السابقة، فهو آخر حلقاتها، وهو المحقق لرسالتها... يقول

اللَّه في كتابه الكريم عن اليهود ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

ويقول أيضاً: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾(٢).

ويقول - أيضاً في خطابه لرسول اللَّه - عليه الصلاة والسلام: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾(٣).

وفي الموقف الإسلامي الكريم من توراة موسى (عليه السلام) التي أنزلها اللَّه على عبده موسى، والتي قرأها على بني إسرائيل في حياته، وحكم بها هو وأخوه هارون فيهم، ثم تركها بينهم وانتقل إلى الرفيق الأعلى... يقول الله في كتابه الكريم: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(٤).

وقد امتدح اللَّه توراة موسى في القرآن، وبيّن أنها كانت تدعو إلى التوحيد الخالص والإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين،

---

(١) البقرة: ٩١.
(٢) البقرة: ١٠١.
(٣) آل عمران: ٢-٤.
(٤) المائدة: ٤٤.

ومخاطبة الناس - غير الإسرائيليين - بالحسنى وعدم المكر والاستكبار، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾(١).

لكن هذه التوراة التي يمدحها اللَّه في القرآن ليست هي التوراة التي عبثت بها أهواء اليهود، والتي يقول اللَّه فيها: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾(٣).

وقال - عز وجل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

---

(١) البقرة: ٨٣.
(٢) البقرة: ٧٥ - ٧٩.
(٣) المائدة: ١٥.
(٤) المائدة: ١٣.

فالتوراة التي أنزلها اللَّه على موسى، والإنجيل الذي أنزله اللَّه على عيسى - جزء من إيمان المسلمين بالوحي السماوي - ولا يكتمل إيمان المسلم إلا إذا آمن بوحي اللَّه وكتبه التي سبقت القرآن، وقد ورد ذلك إجمالاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(١).

وقد بين اللَّه سبحانه في القرآن الكريم أن المسلمين هم - وحدهم - على ظهر الأرض الذين يؤمنون بكل كتب اللَّه المنزلة.. قال تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(٢).

أمّا محمد نبي الإسلام (ﷺ) فهو - أيضاً - الحلقة الأخيرة في سلسلة واحدة مباركة هي (سلسلة الأنبياء) التي تشبه العقد الواحد؛ والبيت الواحد، بل إن (محمداً رسول الإسلام) يبيِّن بأسلوب رائع نادر في التواضع الشعور بالتقدير والإجلال لكل الأنبياء السابقين - إنه عليه السلام «لِبنَة» في بناء «النبوة» الكبير... يقول: «إنّ مَثَلي ومَثَل الأنبياءِ قبلي كمثل رجلٍ بنى بيتاً إلا موضعَ لِبنَة فيه، فكان الناسُ يمرّون بالبيت ويقولون: لولا هذه اللبنةُ، فأنا هذه اللبَنةُ، وأنا خاتمُ النبيين» (٣).

---

(١) آل عمران: ٨٤.

(٢) آل عمران: ١١٩.

(٣) رواه مسلم.

وهذا الحديث الشريف - في الحقيقة - لم يكن إلا ترجمة نبوية كريمة للتوجيهات الإلهية الواردة في القرآن، والتي تُؤصِّل وتؤكد عقيدةَ أنّ الأديان السماوية جميعاً إنما جاءت لتبين مكانة الإنسان في الكون، من خلال تعليم الإنسان وتعريفه بمصدر الكون، خالق الكون، وبمصير الكون والإنسان، وبالتالي فإن كل الأديان تقدم - مهما اختلفت في بعض الشرائع والفروع - نظاماً كاملاً للعقيدة والعبادة يعكس (الموقف الديني) الذي يجب أن يتبنّاه الإنسان في تعامله مع الحياة والكون.. ولهذا المعنى المتكامل لم يكن بِدْعاً أن يركّز القرآن على عقيدة أن رسل اللَّه جميعاً يعزّز بعضهم بعضاً، ويتضامنون في تبليغ حقيقة واحدة، وأن الأنبياء أمة واحدة تحت لواء اللَّه الواحد، وأن هذه الوحدة كانت تجمع الناس فيما مضى، وإنما الأجيال اللاحقة هي التي بذرت الخلاف والفرقة [١] قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[٢].... ويقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٣].

ويقول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [٤].

---

(١) محمد عبد اللَّه دراز : مختصر مدخل إلى القرآن الكريم: ص ٢٥، طبع مصر.
(٢) البقرة: ٢١٣.
(٣) الأنبياء: ٢٥.
(٤) الشورى: ١٣.

ويقول سبحانه وتعالى عند عرضه لقصص عدد من الأنبياء في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(١)، وفي سورة المؤمنون يأتي المعنى نفسه تقريباً: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾(٢).

ومع هذه الخصائص المتعددة والقسمات الكثيرة التي يؤصلها الإسلام ربطاً بين القرآن والكتب السماوية، وبين محمد والأنبياء السابقين (عليهم جميعاً السلام) لدرجة توجب على المسلم الإيمان بكل الأنبياء إيماناً واحداً وكاملاً، مع هذا كله، فإنه لم تظهر في نصوص الوحي الكريم - قرآناً أو سنة نبوية - أي إشارة إلى عدم الاعتراف بالآخرين، أو أي إشارة إلى السماح بإكراههم، أو عدم معاملتهم بالحسنى، أو بكل الحقوق الإنسانية، التي هي حق لكل إنسان.. بل إن الإسلام يأمر المسلمين باتِّباع الأوامر التالية التي وردت في القرآن الكريم: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(٣)، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ...﴾ إلى نهاية السورة التي تقول للكافرين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٤).. وفي الحوار يقول القرآن: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٥).

ومن المعروف أنه من المقومات الأساس التي يتميز بها المسلمون على غيرهم أن الإيمان في الإسلام لا يكتمل بل لايُعتدّ به إلا إذا كان إيماناً

(١) الأنبياء: ٩٢.
(٢) المؤمنون: ٥٢.
(٣) البقرة: ٢٥٦.
(٤) سورة الكافرون.
(٥) النحل: ١٢٥.

بالأنبياء جميعاً وبالكتب السماوية الصحيحة كلها، أما غيرهم فيؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض، وبالتالي يؤمنون ببعض الكتاب (الوحي) ويكفرون ببعض، وقد سمّاه القرآن كتاباً، على أساس أنّ الكتَب السماوية كتاب واحد تتغير طبعاته وبعض قضاياه لتتلاءم مع التطور البشري في الوعي والتحديات الخارجية!!

كما يتميز إيمان المسلمين بأنه يعترف - بل يوجب على أتباعه - حماية المتدينين ورؤساء الأديان من غير المسلمين، وعلى حين تنكر كل الأديان غيرها، فإن الإسلام يبحث عن (الحكمة) ويبحث عن الأخيار في كل دين من الذين يؤمنون بالوحي كله والأنبياء جميعاً حتى لو أضمروا دينهم ولم يظهروه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[1] إلى أن يقول فيهم: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾[2].

ثالثاً: الطبيعة الإنسانية الدولية للمبادئ الإسلامية:

اللَّه في الإسلام رب العالمين، والرسول محمد آخر حلقات سلسلة النبوة، وقد أرسله اللَّه رحمة للعاملين.

وتعاليم الإسلام - عقيدة وشريعة وأخلاقاً - ذات بنية إنسانية عالمية.. وبإيجاز. يمكن الإشارة إلى الطبيعة الدولية في الإسلام من خلال الخصائص والسمات الإسلامية الآتية:

---

(١) آل عمران: ١١٣.
(٢) آل عمران: ١١٥.

آ - عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها:

لما كانت دعوة الإسلام عالمية لم تأت منذ البداية لمخاطبة بلد بعينه، أو قوم بعينهم، فإنها كانت خطوة إنسانية تقدُّمية إلى الأمام نحو تحقيق ما بذلت المحاولات البشرية لتحقيقه من بعد، وهو تدويل المجتمع الإنساني، بَيْد أن الدعوة الإسلامية - مع دعوتها للعالمية والتدويل - لم تسمح بالقضاء على الخصوصيات، أو مصادرة حقوق الحضارات الأخرى في التعبير عن نفسها.

ب - الأخوة الإنسانية:

ويكفي لإيضاح هذه الأخوة من نصوص القرآن قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١).

جـ - خلق الناس جميعاً من نفس واحدة:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (٢).

د - الإنسانية في الإسلام جماعة واحدة:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً ﴾ (٣). ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤).

---

(١) الحجرات: ١٣.
(٢) النساء: ١.
(٣) البقرة : ٢١٣.
(٤) يونس: ١٩.

هـ - اختلاف اللون واللسان آية ربانية لاتفرقة عنصرية:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾(١).

و - العمل الصالح ميزان التفاضل بين المجتمع:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢).

ز - فريضة الحج عبادة إنسانية دولية:

وذلك أنها عبادة يلتقي عندها كل المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها بصرف النظر عن أجناسم وألوانهم وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، فهذه الفريضة تتميز بالأخوة الدولية، ولعله لايوجد ملتقى في عالم اليوم يحطم حواجز العنصريات والجغرافيا، ويلتقي على (الأخوة الدولية الإسلامية) مثل الملتقى الذي تؤدى فيه مناسك الحج في مكان محدود وزمان محدد، ووفق قيم محددة شكلاً ومضموناً يلتزم بها الجميع.. وإلا فسدت عبادتهم.

رابعاً: شهادة عالمية بحقوق الإنسان في الإسلام

في صفر ١٣٩٢هـ (مارس ١٩٧٢م) عقدت في الرياض، ثم في باريس والڤاتيكان ومجلس الكنائس العالمي في جنيف والمجلس الأوروبي

---

(١) الروم: ٢٢.

(٢) البقرة: ٦٢.

في ستراسبورغ ندوات علمية بين فريق رسمي من كبار رجال الفقه في المملكة العربية السعودية، وفريق من كبار رجال الفكر والقانون في أوروبا.. وقد انتهت الندوات باعتراف صريح من الفريق الأوروبي بسمو حقوق الإنسان في الإسلام وسبقها على كل القوانين المعاصرة وشمولها، وقد انتهت الندوة بمذكرة رسمية قدمت للمؤتمرين، كما قدم مضمونها قبل ذلك لقسم حقوق الإنسان بالأمم المتحدة في يونيو ١٩٧٠م مشفوعاً بملاحظات حكومة المملكة العربية السعودية على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

وحقوق الإنسان الأساسية في الإسلام - كما أجملتها المذكرة تتلخص في الحقوق الآتية:

١ - «كرامة الإنسان» عملاً بنص القرآن الكريم الذي قد جاء فيه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(١).

٢ - عدم التمييز في الكرامة وفي الحقوق الأساسية ما بين إنسان وآخر، بسبب العرق أو الجنس أو النسب، أو المال، عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾(٢).

٣ - «النداء بوحدة الأسرة الإنسانية والإعلان بأن خير بني الإنسان عند اللَّه هو أكثرهم نفعاً لهذه الأسرة» عملاً بقول رسول الإسلام (ﷺ) «الخَلْقُ كلُّهم عيالُ اللهِ وأحبُّهم إليه أنفعُهم لعياله».

٤ - الدعوة إلى التعاون بين الشعوب على ما فيه الخير وتقديم أنواع

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) الحجرات: ١٣.

البر إلى جميع بني الإنسان دون النظر إلى جنسيتهم أو دينهم، عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١).

٥ - «حرية الإنسان في عقيدته وعدم جواز ممارسة الإكراه فيها» عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(٢).

٦ - «حرمة العدوان على مال الإنسان ودمه»، عملاً بقول رسول الإسلام: «إنَّ دماءَكم وأموالَكم عليكمْ حرامٌ» (في خطبة الوداع).

٧ - «حصانة البيت لحماية حرية الإنسان» عملاً بما جاء في القرآن الكريم: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾(٣).

٨ - التكافل فيما بين أبناء المجتمع والاعتراف بحق كل إنسان في الحياة الكريمة والتحرر من الحاجة والفقر، بفرض حق معلوم في أموال القادرين ليصرف لذوي الحاجة على اختلاف حاجاتهم عملاً بما جاء في القرآن الكريم، ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(٤).

٩ - «إيجاب العلم على كل مسلم «من أجل القضاء على الجهل عملاً بقول رسول الإسلام: «طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم».

١٠ - «إمكان فرض العقوبة على الممتنعين عن واجب التعلم والتعليم»، وهذا ما لم تصل إليه حقوق الإنسان في أي دولة حتى اليوم، وذلك نتيجة لفرض التعليم على كل مسلم.

---

(١) الحجرات: ١٣

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) النور: ٢٧.

(٤) المعارج: ٢٤- ٢٥.

١١ - «فرض الحَجْر الصحي» في حالات الأمراض المعْدِية، ومنذ أربعة عشر قرناً وقبل أن تتنبه أي دولة حينذاك لإدخاله في تشريعها، وذلك مبالغة من الإسلام في حماية الصحة العامة من المرض، إلى جانب حماية المجتمع من الفقر والجهل.

١٢ - وهناك كثير من النصوص التشريعية الإسلامية التي لا تُحصى لحماية هذه الحقوق التي أشرنا إليها أعلاه، وهي في مجملها تشرح (حقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من مستوى آفاقها الإنسانية العليا التي لا تميز - ولا تسمح أن يميز فيها - ما بين إنسان وآخر، وخاصة بسبب الأمور التي نص عليها (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) وهي: «الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين أو الرأي أو الأصل الوطني والاجتماعي أو الثروة أو البلد».

١٣ - أعلن الإسلام أن النساء شقائق الرجال، وأن لهن من الحقوق مثل ما عليهن من الحقوق إلا ما جعل للرجال من حق في رئاسة الأسرة وتحمل مسؤوليتها، لما بُني عليه تكوين الرجال من خصائص تجعلهم في الأصل أرجح في حمل هذه المسؤولية الاجتماعية الثقيلة.

بين الطبيعة الإنسانية الإسلامية والطبيعة الصهيونية والصليبية:

إذا كنا قد أشرنا إلى الحقوق الإنسانية في الإسلام - كما رأينا - فإننا نعجب في المقابل من الحقوق الإنسانية في اليهودية كما يصورها العهد القديم والتلمود والبروتوكولات!!.

والأعجب من ذلك تأثر الحضارة الأوروبية بهذه القيم اليهودية، فالحقوق الإنسانية لغير اليهود لا وجود لها، والحروب التي تخضع في الإسلام لآداب صارمة تتلخص في أوامر الخليفة الراشدي الأول أبي بكر الصديق لقائده (يزيد بن أبي سفيان) التي ألمحنا إليها سابقاً، والتي لم نذكر منها إلا ما يتصل بحماية الرهبان ورجال الدين في أماكن عبادتهم، وتركنا أوامر عشرة أخرى أمر بها أبو بكر الصديق، وهي أمره لقائده ولقادته جميعاً: (لا تقتلوا امرأة، ولا صبياً، ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تحرقَنَّ نخلاً، ولا تفرقنَّه، ولا تغلل، ولا تجبُن). هذه الوصايا - الأوامر - لا وجود لها ولا لقريب منها، ولا لروحها في العهد القديم، بل تجد نفسك أمام حروب إبادة لعلها هي التي فرضت روحها على حروب الإبادة العنصرية والدينية المعاصرة..

إن التوراة المعدّلة (المحرفة) التي بأيدي اليهود تحث اليهود على إعلان حرب عالمية دائمة مستمرة - مباشرة وغير مباشرة - ضد البشرية... ومما ورد في هذه التوراة - مما يعكس نظرة اليهود للحرب - قول التوراة لليهود:

«إن الأرض التي تدخلون لتملكوها هي أرض متنجسة بنجاسة شعوب الأراضي برجاستهم، التي ملؤوها من جهة إلى جهة بنجاستهم، والآن فلا تعطوا بَنَاتِكُمْ لبنيهم، ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم، ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد لكي تتشددوا وتأكلوا خير الأرض، وتورثوا بنيكم إياهم إلى الأبد» (١).

---

(١) سفر عزرا: الإصحاح (٩/١١ - ١٣).

وقولها أيضاً لهم:

«متى أتى بك الربُّ إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك.. لا تُعط لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك» (١).

وكان من نتائج تمسك اليهود بهذه التعليمات الدينية أن وضعوا قوانينهم ونظمهم ومعاملاتهم ونظرتهم السياسية على التفرقة بينهم وبين سائر البشر في كل شيء، كما عمدوا إلى تاريخ بني آدم يشوهونه ويلوثونه ويبرّئون أنفسهم من العيوب والنقائص، وأعطوا لأنفسهم حق استبعاد الآخرين وإبادتهم.

وقد حددت التوراة صور الإبادة الجماعية في الحروب في ثلاث صور هي:

١ - إبادة المدن المرتدة التي يتأكد اليهود أنها تعبد آلهة أخرى لم يعرفها اليهود:

فقد ورد في سفر التثنية الأمر بإبادتها «فضرباً تضربُ سكان تلك المدينة بحد السيف، وتحرّمها (تذبحها) بكل ما فيها من بهائمها بحدّ السيف، تجمع كل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلاً إلى الأبد لا تُبنى بعد، ولا يلتصق بيدك شيء من المحرَّم، لكي يراجع الربُّ من حُمُوّ غضبه ويُعطيك رحمة، يرحمك ويُكثّرك كما حلَف لآبائك» (٢).

---

(١) سفر التثنية، الإصحاح (٧/١ - ١٤-١٢).

(٢) سفر يشوع: الإصحاح (٨/١ - ٢٨) في ذلك كذلك، الإصحاح (١٠/١٦ -٤٣)، (١٢/١ -٢٤)، وسفر القضاة، الإصحاح (١/٣ - ١٨)، والإصحاح (٨/٤-٦)، وسفر صموئيل الثاني، الإصحاح (١٢/٢٩ - ٣١)، وأخبار الأيام الثاني، الإصحاح (٢٥/١٢-١١).

٢ - إبادة المدن المحاربة التي لم تسلِّم نفسها:

فقد جاء في سفر التثنية أن المدن التي لم تُسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف... هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا..» (١).

٣ - إبادة مدن معينة حددها الله في التوراة وتستحق الإبادة:

وقد حددها سفر التثنية في قوله: «متى أتى بك الربُّ إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك، الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، سبع شعوب أكثر وأعظم منك، ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تُحرِّمُهُمْ، لا تقطع لهم عهداً، ولا ترفق بهم، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم، فلا تزوجوا بناتكم من أبنائهم، ولا أبناءكم من بناتهم، إذ يُغوون أبناءكم عن عبادتي ليعبدوا آلهة أخرى، فيحتدم غضب الرب عليكم ويهلككم سريعاً، ولكن هذا ما تفعلونه بهم، اهدموا مذابحهم وحطمُوا أصنامهم وقطعوا سواريهم وأحرقوا تماثيلهم (٢).

إن النبي يشوع الذي جاء بعد موسى (عليهما السلام) تصوره التوراة وكأنه سفّاح لا نبي، فعندما يدخل مدينة أريحا يأمر بقتل كلُّ الناس إلا الزانية التي سترت جواسيسه في بيتها، ثم يأمر بإحراق المدينة..

---

(١) سفر التثنية: الإصحاح العشرون.
(٢) سفر التثنية: الإصحاح (٧/١-٧).

ويقول العهد القديم عن يشوع وجيشه:

«وحرموا (أي أبادوا) كل ما في المدينة من رجل وامرأة، طفل وشيخ، وحتى البقر والغنم والحمير بحد السيف /أي اقتلوا الجميع/»

يقول العهد القديم أيضاً: إن يشوع أصدر أمره قائلاً:

«وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد، اجعلوها في خزانة بيت الرب. واستحيا يشوع (أي استثنى وعفا) راحاب الزانية وبيت أبيها وكل ما بها وسكنت وسط إسرائيل إلى هذا اليوم؛ لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكي يتجسسا أريحا» [١].. (فالخائنة الزانية - وحدها - هي التي استحقت الحياة، مكافأة على خيانتها)!!.

وفي صورة دموية أخرى يقول العهد القديم مصوراً الهجوم على مدينة (عاي): «فقال الرب ليشوع: لا تخف ولا ترعب، خذ معك جميع رجال الحرب وقم اصعد إلى عاي.

انظر قد دفعت بيدك ملك عاي وشعبه ومدينته وأرضه. فتفعل بعاي وملكها كما فعلت بأريحا وملكها. غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم...» [٢] فهنا في (عاي) استثنت الحيوانات التي لم تستثن في أريحا (وربما تكون لحيوانات أريحا ذنوب لا نعلمها...!) وضربهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت، وأما ملك عاي فامسكوه حياً وتقدموا به

---

(١) سفر يشوع الإصحاح السادس.
(٢) سفر يشوع: الإصحاح الثامن.

إلى يشوع. وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف حتى فنوا، إن جميع إسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف، فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً جميع أهل عاي... ويشوع لم يرد يده التي مدها بالمزراق حتى حرم (أي أباد) سكان عاي، لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي أمر به يشوع.

وأحرق يشوع عاي وجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم، وملك عاي علّقه على الخشبة إلى وقت المساء، وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته من على الخشبة وطرحوها عند مدخل المدينة، وأقاموا عليها رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم [١].

وفي الإصحاح العاشر من سفر يشوع؛ نجد سلسلة من هذه الإبادات الجماعية تقول التوراة:

وأخذ يشوع «مقيدة» في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرّم «قتل» ملكها وكل نفس بها لم يبق شارداً، وفعل بملك «مقيدة» كما فعل بملك «أريحا»، ثم اجتاز يشوع مقيدة وكلُّ إسرائيل معه إلى «لينة» فدفعها الرب هي أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكلَّ نفس بها لم يبق شارداً وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا، ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لينة إلى لحنيش، ونزل عليها وحاربها وضربها بحد السيف وكلُّ نفس بها حسب كل ما فعل بلينة..

(١) سفر يشوع: الإصحاح الثامن.

«ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لحنيش إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها وضربوها بحد السيف وحرم عليها كل نفس بها في ذلك اليوم حسب كل ما فعل بلحنيش، ثم صعد إلى حبرون «الخليل» وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل منها وكل نفس بها، لم يُبق شارداً حسب كل ما فعل بعجلون فحرمها وكل نفس بها، وضرب يشوع كل أرض الجبل والسهل والسفوح وكل سلوكها لم يبق شارداً، بل حرم وقتل كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل فضربهم يشوع من قادس بريئع إلى غزة وجميع أرض جوشن إلى جعبون» (١).

إنها حرب إبادة لا تبقي ولا تذر...!

وفي الأسفار الخمسة الأولى المجمع على أنها من التوراة عند السامريين والعبرانيين معاً، نجد الاتجاه الدموي مسيطراً بحيث يمكننا القول: إن ظاهرة العنف تدخل في صميم نسيج التوراة وفي كل أسفارها بدرجات متفاوتة؛ ففي سفر التكوين - أول أسفار التوراة - يرد ما يأتي:

«ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل (٢).. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريماً» (٣) (أي تبيدها تماماً).

والسؤال الذي نتوجه به هنا: ما ذنب الأطفال والنساء وغير المحاربين في هذه الإبادة الجماعية؟

---

(١) سفر يشوع: الإصحاح العاشر.
(٢) التكوين الإصحاح السابع والعشرون.
(٣) سفر التثنية: الإصحاح العشرون.

لكن الإجابة عن هذا التساؤل تأتينا من التوراة نفسها - توراة ما بعد السبي البابلي وحزقيال ونحميما وعزرا... إن هذه التوراة أباحت إبادة كل حي، وقطع كل شجر أخضر، وحرق كل ما يمكن الانتفاع به، بل جعلتها فرائض وأحكاماً وقوانين..

وقد ورد في سفر التثنية: (هذه هي الفرائض والأحكام التي تحفظون لتعملوها في الأرض التي أعطاك الرب إله آبائك لتمتلكها كل الأيام التي تحيون على الأرض، تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة، وعلى التلال، وتحت كل شجرة خضراء وتهدمون مذابحهم، وتكسِّرون أنصابهم، وتحرقون سواريهم بالنار وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان، لا تفعلوا هذا للرب إلهكم، بل المكان الذي يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سُكناه تطلبون، وإلى هناك تأتون وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ووقائع أيديكم ونذوركم ونوافلكم، وأبكار بقركم وغنمكم، وتأكلون هناك أمام الرب إلهكم وتفرحون بكل ما تمتد إليه أيديكم أنتم وبيوتكم كما باركك الرب إلهكم» (١).

أجل: هكذا يفرح اليهود على أشلاء الناس وبقاياهم وجماجمهم!!!.

وتعليقاً على هذه الإبادات الجماعية يعترف أحد أصحاب الضمائر من اليهود على بني جنسه قائلاً:

نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه ومحركي الفتن فيه وجلاديه (٢).

(١) - سفر التثنية ، الإصحاح (١٢/١-٧).

(٢) محمد التونسي: الخطر اليهودي، مرجع سابق (المقدمة).

والدكتور (ليفي) لم يقل هذا اعتماداً على ما جاء في العهد القديم فقط، بل اعتماداً على وقائع التاريخ كله، وعلى وقائع تاريخ اليهود في فلسطين من سنة ١٩٤٧ - وما قبلها - حتى اليوم.

وفي العدوان الثلاثي على مصر. عام ١٩٥٦م ، حيث كانوا مضرب الأمثال في الوحشية والفتك، وفي مذابح دير ياسين والخليل ورام الله وغزة وغيرها من مدن فلسطين، وفي جنوب لبنان، ومع الانتفاضة التي بدأت في سبتمبر سنة ٢٠٠٠ م والتي راح ضحيتها آلاف الشهداء والجرحى والمعوقين ممن سقطوا من أبناء الشعب الفلسطيني.

مقارنة بين الحروب اليهودية والإسلامية:

إن الروح اليهودية هنا لا علاقة لها بالحروب في الإسلام، ولعلنا عندما نتتبع حروب أنبياء بني إسرائيل - عليهم السلام - من أمثال يشوع وداود وسليمان، نعرف كيف أن رجالاً من أمثال بن جوريون، ونتنياهو وشارون يتعاملون مع الفلسطينيين بهذه الإبادة الجماعية، وبهذه الأساليب غير الإنسانية.. إنما يتمثلون ذلك الذي جاء في التوراة ويرون أن الحقوق الإنسانية محصورة في اليهود وحدهم.

لكن الروح العسكرية الإسلامية تختلف تماماً عن هذه الروح التي يبثها العهد القديم عبر العصور، حتى انتهت بالبشرية إلى إنتاج أسلحة الدمار الشامل والحروب العالمية (هيروشيما وناغازاكي) التي أتت فيها القنابل الذرية على الأخضر واليابس والطفل والشيخ..

إن رسول الإسلام محمداً (وعلى خطاه مضت الفتوح الإسلامية حتى صلاح الدين الأيوبي) كان يوصي الجيوش بألاّ يقاتلوا إلا بعد أن

يدعوا أعداءهم إلى الإسلام أو إبرام معاهدة سلام وعدم اعتداء، ثم عليهم أن يحموا أنفسهم وهم مستقلّون في ذلك، أما إذا أرادوا أن يحميهم المسلمون - كشرط من شروط معاهدة السلام - فإن عليهم أن يدفعوا «الجزية» بدلاً من (الدفاع عنهم) ولهم أن يطلبوا في أي وقت إسقاط الجزية والدفاع - بالتالي - عن أنفسهم، فالجزية ليست إلا (بدل تجنيد في الجيش - فدية جندية).. ومن وصايا الرسول الخطيرة التي لا وجود لمثلها في الأعراف والقوانين العسكرية، قوله لمعاذ بن جبل، ولعلي بن أبي طالب - في وصيتين متقاربتي اللفظ والمعنى:

« لاتقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبوًا فلا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإن بدؤوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، ثم أروهم ذلك القتيل وقولوا لهم: هل إلى خير من هذا سبيل؟ فلأن يهدي الله على يديك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت» (١).

ويقول النبي محمد (ﷺ) في وصية عامة موجهة لجميع جيوشه: «تآلفوا الناسَ وتأنّوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل مَدَر ووبر إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إليَّ من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم».

ويعلق على هذه الوصية الدكتور (علي عبد الواحد وافي) قائلاً: إنه بهذه الإجراءات الكريمة وما إليها يدل الإسلام على شدة حرصه على حقن الدماء وإيثار السلم، وينأى بالمسلمين عن جميع مظانّ الغدر والخيانة وأخذ الأعداء على غرّة، فيقي الناس ويلات الحروب، وما

(١) المبسوط، الجزء الأول، ص ٣١، نقلاً عن (د/علي عبد الواحد وافي: حماية الإسلام للأنفس والأعراض، ص ٤٠، طبعة ٢، ١٤٠٣ هـ، عكاظ، السعودية ١٩٨٣م).

ينجم عنها من نقص في الأنفس والأموال والثمرات، أو يخفف ما استطاع من هذه الويلات [١].

ولقد كان من نتائج تعاليم الإسلام وآدابه في الحروب أنه بينما دفع الغالب والمغلوب في الحربين العالمين (١٩١٤ م)، (١٩٣٥ م) ثمناً باهظاً، فوقع نحو (١٦٧ مليونا) بين قتيل وجريح ميئوس من شفائه، بينما لم يزد كل ضحايا غزوات الرسول (ﷺ) وحروبه ضد الشرك واليهود على عهد الرسول (ﷺ) عن (٣٨٦) شخصاً من الفريقين (المؤمن والكافر) و(الغالب والمغلوب) وذلك خلال ثلاثة عشر عاماً، وخلال أكثر من ستين غزوة وسرية..

وهذا باستثناء الخونة خيانة عظمى من الذين قتلوا لخيانتهم للشريعة (للدستور والقانون الإسلامي) من أمثال بني قريظة. (وهذا القتل هو عقوبتهم في كل القوانين الدولية!!).

ولعل أدنى مقارنة بين الطرفين تكشف حقيقة الوحشية الأوروبية في الحروب وتكشف الحقيقة الإنسانية للإسلام في حروبه وفي سلمه!!.

ولئن كانت الحضارة الأوروبية والمنظمات الدولية قد انتهت إلى تقرير بعض الحقوق الخاصة بالجرحى وموتى الحروب، مع أنها هي التي اخترعت الحروب العالمية.. كما أنها هي التي اخترعت أسلحة الدمار الشامل..

لئن كان الأمر كذلك فإن مما لا شك فيه عندنا أن الروح الإسلامية الحضارية التي أثّرت في أوروبا قديماً وحديثاً، وزرعت فيها أخلاق

(١) انظر علي عبد الواحد: المرجع السابق، ص ٤١.

الفروسية، ونشرت بينها المستشفيات (البيمارستانات) وكتب الطب، وأخلاق الطبيب، وإنسانيات الطب، كلها قد أثرت في التقدم البشري الذي انتهى إلى هذا المستوى الذي ألمحنا إليه.

لقد سبق الإسلام كل القوانين الدولية في حماية كرامة الإنسان، مسالماً أو محارباً، وبتأثير من التعاليم الإسلامية استطاعت البشرية أن تصل إلى تقعيدٍ (قانوني ونظري!!) لحقوق الموتى والجرحى والمرضى - من الأعداء في الحروب - (ويجب أن يعرف أن كل ما تصل إليه البشرية في هذا المجال الخيِّر يقرّه الفقه الإسلامي الدولي).

وقد عقدت أخيراً اتفاقية عامة لتحسين حالة جرحى الحرب هي اتفاقية (جنيف المبرمة سنة ١٨٦٤) والمعدلة بمعاهدة ١٩٠٦ ثم باتفاقية (٢٧ يوليو سنة ١٩٢٩) وأخيراً باتفاقية (١٢ اغسطس سنة ١٩٤٩).

وقد أقرت هذه الاتفاقية مبدأ حماية الجرحى والمرضى الذين يصابون في ميدان القتال، وفرضت على قوات الدولة التي تسيطر على ميدان المعركة البحث عنهم وحمايتهم من أي اعتداء أو معاملة سيئة، كما فرضت على الفريقين المتحاربين الاتفاق على وقف القتال الوقت الكافي لنقل الجرحى الموجودين في الميدان بين الخطوط - بقدر ما تسمح به الظروف الحربية.

ولسنا مبالغين إذا عزونا هذا التطور لتعاليم الإسلام، بل إننا صادقون كل الصدق حينما نقول: إن الإسلام كان أسبق من هذه القوانين من الناحية النظرية، وكان أصدق - الصدق كله - في الناحية العملية والتطبيقية التي تنقص الحضارة الحديثة.. حضارة الشعارات والنظريات..

أما الإسلام فهو حضارة القول والفعل: وصدق اللَّه في كتابه الكريم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾(١).

تأثر الفكر الأوروبي باليهودية والعداء الثابت للآخر (المسلم):

لقد ظل الفكر الأوروبي يمشي بعيداً عن الرؤية المنصفة المرنة المتفتحة على الإنسان الآخر، إلى أن أصبحت (صورة الآخر) صورة نمطية يتعامل الغرب بها - بوحشية - مع كل من يختلفون معه سياسياً أو فكرياً أو دينياً... وكل هذا بسبب خضوعه لمصادر الفكر اليهودي والصهيوني.

وقد ورثت هذا التنميط قوافل المستشرقين، وكان عليها تطوير صورة العدوّ - من خلال الفهم العميق لشخصه والعمل على تحقيق الأهداف المسبقة.

ومع ظهور القرن التاسع عشر الميلادي أصبح الشعور بالتفوق الأوروبي مهيمناً، بما يتسم به من الواقعية المصلحية (البراغماتية) و(الإمبريالية) والازدراء التام لكل الحضارات الأخرى، فقد ذهبت أوروبا إلى أن كل مقاومة لهيمنتها تمثل مؤامرة شرّيرة مستوحاة من روح حاقدة (٢).

فالمستشرقون، ورجال السياسية، ورجال الإعلام والاستخبارات يعملون جميعاً.. لأهداف مشتركة - هي تثبيت صورة الآخر العدو، ويساعدهم في تحقيق أهدافهم المتحمسون الدينيون الذين يسخرون

---

(١) الصف: ٣.

(٢) مجموعة أبحاث صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه - مركز دراسات الوحدة العربية ص٦١ مقال (فيلهو هارلي) نشر بيروت.

الموروث الديني والتاريخي لتثبيت صورة الآخر العدو، ولهذا يرى «إدوارد مورتيمر» أن الميراث المسيحي «يظل عنصراً رئيساً في الهوية الأوروبية، بمعنى أن تعريف الآخر (العدو أو الصديق) لا يزال أسيراً لعبارات دينية، حتى لو جرى التعبير عنها باللغة العلمانية التي تستخدم مصطلحي (ديمقراطية) و (طغيان)... فالصورة المؤطرة والجاهزة تختلف أشكال التعبير عنها لكنها واحدة، بل إن الميل إلى تثبيت صورة العربي والمسلم ميلٌ مستمر ينحدر إلى الثبات في الكتب والمناهج المدرسية في البلاد الأوروبية والأمريكية، وهي صورة مزمنة، للمستشرقين الدور العلمي الأساسي في إبرازها، وهي - كما نرى - صورة تقوم على ضمنية المجابهة العدائية التاريخية، وعلى ثنائية التعارض بين ثقافتين [١].

وجدير بالذكر أن الاستشراق هو - باختصار - المعرفة التي أنتجها الغرب عن «الشرق» عن شعوبه وثقافاته، أو بعبارة أخرى هو «الشرق» كما يراه الأوروبيون، أو كما هو متجسد في الخيال الغربي، ويمكننا أيضاً القول: إن الاستشراق هو الشرق كما ينبغي له أن يكون في نظر أوروبا - كعدو ثابت - وليس كما هو كائن بالفعل وفي الواقع [٢].

فالشرق في إطار هذه الصورة (الاستشراقية) استبدادي لا يعرف ولم يعرف الديمقراطية أو الشورى، ولم يعرف كيف يحكم نفسه بنفسه، كما أنه يعاني من الدونية في مواجهة التفوق الغربي، ومختلف في كل شيء عن الغرب.

---

(١) صورة الآخر العربي: (مرجع سابق)، ص ٣٠ - ٣١.

(٢) مجلة العربي العدد ٥٢٩، ١٤٢٣ هـ، مقال (أوروبا الاستعمارية كيف رأت الآخر؟) للدكتور عبدالعليم محمد، ص ٢٧.

وهذه النظرية الأوروبية الاستعمارية التي ترتكز على القوة والمعرفة تستهدف تسويغ السيطرة على الشرق وتبرير المؤسسة الاستعمارية وممارستها في الواقع - كما قدمها الساسة والمستشرقون والاستخباريون - وهي مقدمة للسيطرة عليهم وفرض الاحتلال والاستعمار، ففي خطاب آرثر جيمس بلفور في ١٣ يونيو عام ١٩١٠، برّر احتلال إنجلترا لمصر بمعرفة الإنجليز بمصر وأحوالها وتاريخها وحضارتها. ذلك أن المعرفة في إطار نظرة بلفور هي عبء الانتقال من المحلي إلى العالمي، والخروج من الأول إلى أفق السيطرة الكونية.. ولهذا فهم يريدون تحت مظلة حقوق الملكية الفكرية حرمان العالم من المعرفة، وهذا النمط من العلاقة لا يقتصر فقط على بلفور وإنما يمتد ليشمل رجال الإدارة الاستعمارية، فنظرتهم تتأسس على الاستعلاء والتفوق وتتغلّف بمسوح كونية (عولمية)، مهمة الرجل الأبيض في العالم غير الأوروبي، رسالة الحضارة الأوروبية في العالم، أي فرضه الأوربة أو الأمركة على العالم (١).

وتضاف أسطورة «التهديد الخارجي» إلى مجموعة العوامل المحركة لتثبيت هذه الصورة للآخر (العدو)، وبالتالي، فلم تعد المناهج العلمية، وأساليب التفاهم والتعارف، أو التجربة الشخصية هي المصادر الأساسية لمعرفة «الآخر» كما كانت في المجتمعات التقليدية. لقد تعددت وسائط هذه المعرفة، كما اتسعت سوق بيع الصور والأحكام المسبقة، ومن أكثر هذه الصور مقاومة ورواجاً هي - كما ألمحنا - صورة

(١) مجلة العربي: (مرجع سابق)، ص٢٨.

التهديد[١]... حتى ولو كان التهديد المزعوم منسوباً إلى «الآخر» الذي هو أضعف مائة مرة.. من «الأنا» الأوروبي والأمريكي!!.

ومع أن فرنسا قد احتلت بلاداً عربية كثيرة، ومع أن ثورتها التحريرية قامت على شعارات (المساواة والإخاء والحرية)، ومع أنها تركت في الجزائر خلال ثماني سنوات هي سنوات الثورة مليوناً ونصف مليون شهيد وقتيل.. إلا أن (العربي) لديها - كذلك - هو العدو لآخر الثابت..!!

ولقد وجد الفرنسيون كما يقول شارفان أستاذ القانون الفرنسي في العربي «العدو الأمثل» بعد أن أحدث غياب الشيوعية خطراً على الإجماع الذي كان قائماً إزاءها.

ومما هيَّأ العربيّ للعداوة أنه ذو سمات بارزة، علنية، وأيسر تميزاً من غيره، وهو - أيضاً - يجمع بين مواصفات كبش الفداء.... إنه يلبي حاجة الفرنسيين إلى العثور على الذات وإلى فهم مساوئ الأزمة دون عناء، وهناك أزمة مجتمع في فرنسا تحتاج إلى تحميل المهاجر العربي بعض أسبابها.

وما يقوله (شارفان) - أستاذ القانون الفرنسي - ينطبق - بدرجات متفاوتة - على كثير من الدول الأوروبية والدائرة في فلكها.. فالآخر «العدو» (العربي) مطلوب لأغراض محلية.. وسياسية.. واقتصادية... ودينية - أيضاً.

وهكذا تقف أوروبا منطوية على نفسها، متدثِّرة (بالأنا) ومتدثرة - بالدرجة نفسها - (بالآخر العدو) الذي يمنحها (وجوده الأسطوري)

(١) مجلة العربي: (مرجع سابق)، ص٢٨.

حركة دائمة، وسعياً للتفوق والهيمنة، واستغلالاً يعتمد على (شرعية أوروبية عنصرية) لشعوب العالم..

ومن وراء أوروبا تراث أمريكا هذه (الأيديولوجية الأسطورية) التي لم تمرّ بتجاربها التاريخية.. لكنها - كعنصر في البيت الحضاري الأوروبي - تؤمن بأن القيادة قد آلت إليها، وعليها - بدون تفكير متعقل، بل وبضغط من قوى الصهيونية أن تعمل على إثبات وتأكيد أيديولجية (الأنا) الرافض (للآخر العدو) والمتربص دائماً، والعامل على إزالته.. بأعنف ما عرف تاريخ الحضارات من عنف ودموية وخروج على أبسط قواعد الأديان والقوانين والأخلاق.

❖❖❖

* والسؤال - أخيراً:

تُرى أيهما - الإسلام أم الحضارة الأوروبية - أهدى سبيلاً..؟..

وأيهما يدعو للحوار والعدل والتسامح والرحمة؟...

وأيهما يجعل للحروب ومنطق القوة حدوداً إنسانية وقواعد أخلاقية؟..

وأيهما يسعى للإباد وفرض الهيمنة وتثبيت العداء وتقنية وجعله ديناً، بل وجعله القاعدة لا الشذوذ؟..

---

* والإجابات وردت في ثنايا البحث.. والمسلمون والأوروبيون يعرفونها.. لكن الخضوع الأوروبي الأمريكي لمصادر الفكر اليهودي، ولمنطق المادة والمصلحة الدنيوية يقف وراء هذا الظلم الثابت الذي لا نملك معه إلا أن نقول:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾(١)

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾(٢)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾(٣).

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٤).

(١) الفجر: ١٤.
(٢) الأنعام: ١٣٢.
(٣) إبراهيم: ٤٢.
(٤) القصص: ٨٣.

ثالثاً

فتنة احتكار الولاء لآل البيت

بين التوظيف الشعوبي وإقامة الدول

(فتنة تستنزف طاقة الأمة منذ أربعة عشر قرناً)

في بداية حديثنا نشير إلى حقيقة شائعة في التاريخ كله، وهي أن كثيراً من الدعوات الكريمة تتعرض لمن يتسترون بردائها ويقفون تحت شعاراتها، ليحققوا أغراضهم التي يصعب عليهم تحقيقها وهم عراة مكشوفون واضحون.

وقد تعرضت الأديان نفسها لهذا اللون من النفاق والاختراق، فانضوى تحت لوائها من عمدوا إلى تشويه حقائقها وتأويلها تأويلاً يكدر منابعها ويحقق لهؤلاء المؤولين أهدافهم لدرجة الخروج بالدين عن التصورات الأساسية واتخاذ حقائقه لهواً فكرياً ولعباً مذهبياً.

وفي تاريخنا الإسلامي كان الولاء لآل البيت والتشيع شعوراً فطرياً؛ لأنه جزء من الولاء الإسلامي الذي حث على - بل وفرض - حب النبي وآله وصحابته، في القرآن الكريم والسنة النبوية.

وليس لهذا الحب مذهبية مُعَيَّنة؛ لأنه - كما ذكرنا - فرضٌ من فروض الإسلام؛ فالمودة في القربى، والحب لآل البيت والصحابة، إنمّا هما - في الحقيقة - مودةٌ وحبٌ لرسول الله (ﷺ) نفسه، فمن أحبهم فبحبه أحبهم ومن أبغضهم فببغضه أبغضهم، كما أشار إلى ذلك الرسول الكريم [1]!!

بيد أن تطورات سياسية وفكرية غير نقية قد مكنت بعض الناس من أن يستغلوا هذا الحب، ويحولوه من مجرد تشيع كريم لآل البيت إلى مستودع

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي (٥)، الدولة العباسية جـ١ ط١ المكتب الإسلامي القاهرة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م ص ١٣.

يضعون فيه كل ما يضمرونه لهذا الدين ولهذه الأمة التي كان انتماؤهم إليه وإليها مجرد نفاق اضطروا إليه لتحقيق مكاسب مصلحية قريبة، ولتحقيق تخريب مستمر ينطلق من داخل البناء الإسلامي نفسه» (١).

ويشير الكاتب الفاضل الأستاذ جعفر الصادق عبد الرزاق (هولندا) في دراسة له حول (منهجية الحوار في الإسلام) إلى هذا اللون من الظلم والتشيع الذي لحق بالتشيع النقي فأفسد عليه مجراه إلى أن تنبه المصلحون الملتزمون الشيعة، ولا سيما في العصر الحديث - فتتبعوا هذه الأفكار الدخيلة على التشيع السنّي والإسلامي الصحيح بالدحض والرد.

يقول الأستاذ الفاضل: إن كتاب (مختصر التحفة الإثنى عشرية) الذي ألّفه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي الهندي - ذكر في الباب الأول (فرق الشيعة وبيان أحوالهم وكيفية حدوثهم وتعداد مكايدهم) فأورد في هذا الباب ثلاثاً وثلاثين فرقة شيعية، كثير منها لم يسمع بها أحد كالسبئية والمفضلية والسريفية والبزيغية والكاملية والجناحية واليبانية والمنصورية والغرابية والذبابية والدمية والمقنعية، بل وحتى البهائية. وبعضها مجرد رأي أو مقولة منسوبة إلى شخص يدّعي أنه شيعي ليصبح هذا الفرد فرقة شيعية لها أتباع وأنصار ومؤيدون، وأما الآراء التي ينسبها لهذه الفرق المختلفة فهي عقائد غريبة وقبيحة وفيها شرك وغلو تجعل القارئ ينفر من كل ما له صلة بالشيعة» (٢).

---

(١) محمود شاكر المرجع السابق ص ١٤.

(٢) انظر. مجلة رسالة الثقلين - العدد ٣٣ - السنة التاسعة المحرم ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م ص ١٦٩ . قم - إيران.

وما يقوله الأستاذ جعفر عبد الرازق في نصه السابق يكاد يتفق فيه معه (بطريقة أو رؤية مختلفة لكنها متكاملة) المؤرخ المعروف الأستاذ أحمد أمين، حين يشير إلى مساحة الاستغلال والظلم التي حاقت بالمذهب الشيعي لدرجة تقتضي جهاداً كبيراً من إخواننا الشيعة الصادقين المنتمين إلى كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) في سبيل تخليص «التشيع الحق» من هذا الاستغلال الفاسد الذي قام به كثير من أعداء الإسلام.. يقول الأستاذ أحمد أمين:

«والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكة الإسلام، كل هؤلاء كان يتخذون حب أهل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم، فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة، وقال الشيعة: إن النار محرمة على الشيعي إلا قليلاً كما قال اليهود «لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات»، والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم: «إن نسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح إليه، وقالوا إن اللاهوت اتحد بالناسوت في الإمام، وإن النبوة والرسالة لا تنقطع أبداً، فمن اتحد به اللاهوت فهو نبي.. وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم اللَّه، والحلول، ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الإسلام[1].

❖ ❖ ❖

(١) أحمد أمين - فجر الإسلام ص ٢٧٦، ٢٧٧ طبع مصر، وانظر د. أحمد شلبي: الدولة الأموية ص ١٥١، ص ١٠١ - ١٩٩٩ م

وبصرف النظر عن ذلك الخلاف العميق - بل والعقيم أحياناً - الذي يصل إلى حد الرفض الكامل بين السُّنة والشيعة مع أن الطرفين - كما يبدو لي يحاولون استخدام أكبر الطرق العلمية والمنهجية لتأكيد وجهة النظر الخاصة بكل منهما حول شخصية (عبد الله بن سبأ) - وجوداً وعدماً - من خلال «رسائل دكتور اهات» وبحوث دقيقة [١].

أقول: بصرف النظر عن هذا الخلاف العميق والعقيم إلا أن الحقيقة التاريخية التي لا يستطيع أحد إنكارها - بل ويؤكدها الشيعة أنفسهم بكل قوة - أن ثمة سيلاً من الأفكار والمذاهب المتطرفة روجها بين المسلمين سبئيون - مهما تكن أسماؤهم المستترة وحقيقتهم الغامضة - لدرجة ظلم معها «التشيع الحق» ظلماً مبيناً، وكادت تتوه خيوط العلاقة الصحيحة التي يجب أن تكون المنهج الصحيح الذي يقبله الإسلام في علاقة المسلم بآل البيت، وفي التعبير عن حبه الصحيح المنضبط بالكتاب والسنة لهم.

وفي الحقل الإسلامي ظهرت مصطلحات تدور على الألسنة تؤكد هذه الحقيقة مثل مصطلحات (الإسرائيليات)، و (غلاة الشيعة)، (مدعي التشيع)، وغيرها.. وهي مصطلحات تؤكد أن هناك من حاولوا توجيه التشيع لمصلحة مذاهبهم وأحقادهم على الإسلام والمسلمين!!.

ولقد أدرك أسلافنا العظماء الذين عَمَد غلاةُ التشيع إلى التّمسح بهم خطر هؤلاء وأغراضهم الحقيقية وكيدهم للإسلام، ولم يقصّروا

(١) تنظر رسالة ماجستير عنوانها (عبدالله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام) للمؤرخ السعودي سليمان بن حميد العودة، نشر دار طيبة، الرياض، ط١ ١٤٠٥ ، وكتاب (عبد الله بن سبأ) للأستاذ مرتضى العسكري، ط٢، ١٣٨١، القاهرة.

في جهادهم، وكان إمام هؤلاء جميعاً الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) نُسب إليه أنه أعدم بعضهم حرقاً.. كما أن محمد بن الحنفية وابنه هاشماً لم ينخدعا بأقوال هؤلاء، وكانت جهودهما سبباً في هزيمة بعض مدّعي التشيع مثل المختار وعبد الله بن عمرو بن حرب الكندي، كما أن الإمامين الباقر وجعفر الصادق (رضي الله عن الجميع) وقفا ضد غلاة التشيع مثل أبي منصور العجلي وأبي الجارود وأبي الخطاب - وما كان لمثلهما - في تقواهما - إلا أن يقفا هذا الموقف دفاعاً عن الدين السمح الوسط الصافي عقيدة وشريعة، الذي كان عليه جدهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وإمام الأنبياء محمد (ﷺ).

ولم يقف بلاء هؤلاء الكذابين المتطرفين عند حد المجاهرة بهذه المعتقدات الضالة عن آل البيت، بل زادوا فوضعوا على ألسنتهم كلاماً لا يمكن أن يصدر عن مثلهم في ورعهم وفضلهم [1].

وقد أدرك أئمة آل البيت ذاك فقاوموا ما استطاعوا في حياتهم، لكن بقيت بعد موتهم أقوال أفلتت من رقابتهم وجهودهم ونسبت إليهم زوراً وهم منها براء. يقول الشهرستاني في ذلك: «إن جعفر الصادق تبرأ مما كان ينسبه إليه بعض الغلاة وبرئ منهم ولعنهم، وبرئ من خصائص مذاهب الرافضة وحماقاتهم في القول بالغيبة والرجعة.. لكن الشيعة بعده افترقوا، وانتحل كل منهم مذهباً، وأراد أن يروجه على أصحابه فنسبه إلى جعفر وربطه به، والسيد برئ من ذلك «فبينما يبرأ

(١) محمود شاكر : التاريخ الإسلامي - ٥ . ج١ الدولة العباسية - المكتب الإسلامي ط ١ القاهرة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٣ م ص ١٥ - ١٩.

جعفر من القول بالغيبة والرجعة، يقول الناووسية وهم من فرق الأمامية: إن الصادق حيٌّ ولن يموت، وسيعود للظهور ويعلو أمره، ويروون عنه أنه قال: لو رأيتم رأسي يدهده عليكم (يدحرج من الجبل) فلا تصدقوا، فإني صاحبكم صاحب السيف» (١).

وقد نسبوا إلى جعفر أقوالاً لايمكن أن تصدر عن مثله في دينه وفقهه، مثل نسبتهم إليه أنه القائل: التقية ديني ودين آبائي وأجدادي ومن لاتقية له لادين له، والقائل: من أطاعنا فقد أطاع الله، ومن عصانا فقد عصى اللَّه، فنحن أبواب الله وحجبه وأمناؤه على خلقه، وحفظة مكنون سره، والآخذون عهده وميثاقه (٢).

ولهذا الظلم الذي وقع بالتشيع الصحيح، نتفق مع أستاذنا الدكتور أحمد شلبي - رحمه اللَّه - في أنه من الضروري أن تحذف من الشيعة تلك الفرق التي تكونت لتفسد الإسلام وتمحو حضارته وأفكاره، فإذا فعلنا ذلك بقيت عندنا جماعات الشيعة الأصلية، تلك الجماعات الجديرة بالدراسة، والتي تتفق مع غير الشيعة من المسلمين في كثير من الأحيان (٣).

- أما غلاة الشيعة - والحلولية المنسوبون إلى التصوف - فهم ليسوا شيعة على الإطلاق.. وليسوا متصوفة.. بل ليسوا مسلمين.. بل هم في الحقيقة أعداء لآل البيت، وأعداء للإسلام!!.

- وفي الجانب الآخر.. يجب أن نعترف بأنه ظهرت طوائف كثيرة -

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ١٤٨، وانظر د. أحمد شلبي: الدولة الأموية ١٥٨.
(٢) د. شلبي - المرجع السابق ١٥٨ (عارف تامر - أربع رسائل إسماعيلية ٥١ - ٥٧)
(٣) المرجع السابق ١٦٦.

في جانب أهل السنة - انحرفت عن الإسلام تحت وطأة نزعات عقلية اعتزالية، أو كلامية، أو عاطفية صوفية، لكن هذه الطوائف سرعان ما كانت تجد مجددين نشطين يردونها إلى الكتاب والسنة، ويقاومون بدعها وخرافاتها - أحياناً - بأسلوب متدرج هادئ..

ولئن كانت بعض الهيئات والقوى تدعم هذه الاتجاهات صرفاً للناس عن الإسلام الصحيح، إلا أن نمو الوعي الإسلامي المستمد من الثقافة الإسلامية يكشف الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، فانحرفوا عن الكتاب والسنة، حتى لو ناصرهم بعض الأقوياء.. لأهداف غير إسلامية [١]!!

وفي ضوء هذا فنحن نأمل أن يظهر في الجانب الشيعي في العصر الحديث مجددون من أمثال الإمام الشوكاني (الشيعي الزيدي) ومثل العلامة أمير البيان «شكيب أرسلان» (الدرزي الأصل) ومثل صديقنا الشيخ محمد علي تسخيري الذي كان يبدي تعاوناً كبيراً معنا في كثير من ملتقيات الفكر الإسلامي، في سبيل التقريب الموضوعي السليم، وفي سبيل الوقوف المشترك ضد اللادينية والمادية اللتين يحاول أتباعهما من المحسوبين على الإسلام تحريف الكلم عن مواضعه، وإخضاع الإسلام للفكر اللاهوتي أو للتطورية العقلانية الرافضة لقدسية الوحي وثوابته.

وقد كات الأسرة العباسية طليقة الأسر التي استغلت عاطفة الولاء لآل البيت وأقامت لنفسها - على أساسها - دولة عظمى، لكن سرعان ما ظهرت أطماعها المستقلة البعيدة عن الولاء اللهم إلا للإسلام والبيت العباسي [٢].

---

(١) عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ١ القاهرة : ١٩٦٠ م ص ٢٦٦.
(٢) المرجع السابق ١٦٦.

بنو العباس واستثمار الولاء لآل البيت

لقد أُعلن ميلاد دولة العباسيين مساء يوم الخميس السابع عشر من شهر ربيع الأول ١٣٢ هـ/٧٤٩ م، وفي مدينة الكوفة، وكان أبو العباس السفاح (عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس) أول خليفة للدولة العباسية التي ظلت تعمل عشرين سنة أو أكثر - بطريقة سرية تحت شعار الرضا من آل البيت - لتقويض دعائم البيت الأموي، وقيام دولة آل البيت (العباسي، نسبة إلى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه)..

وفي الخطب الأولى التي واجهوا بها الرعية، أظهر بنو العباس - بوضوح - استثمارهم لشعارات الولاء لآل البيت، بل وقرروا أنهم الفرع الأجدر بالخلافة من فروع آل البيت.. بعد أن أمَّ الخليفة السفاح المسلمين في مسجد دار الإمارة، وبعد الانتهاء من خطبة الجمعة والصلاة، صعد المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم بين فضل بني العباس، وقرابتهم من رسول الله (ﷺ)، ثم قال:... وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرئاسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم: بِمَ، وَلِمَ أيها الناس - إلى أن قال: وثب بنو حرب ومروان فابتزوها، وتداولوها بينهم، فجاروا فيها واستأثروا بها، وظلموا أهلها. فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا وولي نصرنا، والقيام بأمرنا ليُمنَّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، ثم أثنى على أهل الكوفة وزاد في عطائهم مائة درهم [١].

(١) ابن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ٧/٤٢٥ ، ٤٢٧.

وقد أوجز أبو العباس الخطبة، فقام عمه داود بن علي، وصعد المنبر، ووقف دونه، فشكر الله على عودة القوس إلى باريها، والسهم إلى منزعه، وذكر أن خروجهم ليس لجمع الأموال، أو حفر الأنهار، أو بناء القصور، وإنما طلباً لحق اغتصب منهم، وثأراً لبني عمهم من العلويين، وأخذاً لحقهم من ظلم بني أمية لهم [١].

وهكذا - كما تدلنا الوقائع وكلمات الاستهلال لخلافتهم العباسية طويلة العمر - أن نزعة الولاء لآل البيت، أو حسب الشعار الرسمي الذي رفعه العباسيون (الرضا من آل محمد) كانت - الطريق الذي وصلوا منه إلى كرسي الحكم، وقضوا به على خصومهم بني أمية الذين لم تنس الذاكرة الإسلامية لهم، حروبهم مع الإمام علي في الجمل وصفين، وقتلهم، وسجنهم لبعض الرموز الكبيرة مثل الإمام زيد بن علي؛ فضلاً عن استشهاد الإمام الحسين في مذبحة كربلاء، التي كانت الباب الأكبر لتأجيج العواطف نحو آل البيت، وشحن الضمير الإسلامي بموجات قوية من الألم والغضب، بل والشعور بالذنب، والرغبة في الثأر.

وكل هذا قد استثمره العباسيون - بأساليب إعلامية ، وعاطفية غاية في القوة والدهاء - فسارت خلفهم جموع الفرس، والجماهير الموالية لآل البيت، ونجحت خطتهم في القضاء على بني أمية وإقامة الدولة العباسية.

وكانت الدولة الأموية؛ الآيلة للسقوط، المتناحرة داخلياً؛ قد قدمت لهم - كذلك - مساعدة كبيرة؛ فالتقت عوامل الانهيار الأموي، مع

(١) محمد سالم العوفي: العباسيون في مواجهة الأزمات، ص ١١، نشر دار الصحوة، القاهرة ١٩٩٧م.

التخطيط العباسي المعتمد على الشحن العاطفي القوي لآل البيت.. فحقق ذلك انتصار العباسيين على الرغم من القوة العددية الكبيرة التي كانت مع آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد في معركة (الزاب) وهي المعركة الفاصلة التي انتهت بنهايتها دولة بني أمية وقامت بعدها دولة بني العباس عام ١٣٢ هـ.

❖ ❖ ❖

وأخيراً..

فقد سار التاريخ الإسلامي عبر أربعة عشر قرناً وهو يحمل هذا الصراع الذي يعتمد على احتكار بعضهم للولاء لآل البيت، مع أنه جزء من التاريخ الإسلامي، محكوم - مثل كل العلاقات - بضوابط الكتاب والسنة..

وقد أفرز هذا التوظيف دولاً وجماعات ابتعدت كثيراً عن الإسلام، مثل الدولة الفاطمية، والدولة البويهية، وغيرهما..

وقد حان الوقت - في عصر العقل والمصالح المشركة والتكتلات العالمية - أن نعمل على إزالة هذا الصراع، بالعودة إلى الكتاب، وإلى السنة الصحيحة، بعيداً عن الإفراط والتفريط، والتزاماً بالثوابت والنصوص، والتسامح في كل ما لا يتعارض معهما.

رابعاً

فتنة تأويل النصّ وإلغاء المؤلف باسم الحداثة والتنوير!!

إن إعادة قراءة النصّ التي تعني إنتاج النصّ إنتاجاً يوافق فكرية القارئ واتجاهاته، بصرف النظر عن دلالات النصّ الحقيقية، وذلك عن طريق تأويل النصّ تأويلاً قد ينقله من اليمين إلى اليسار، ومن الإيمان إلى الكفر بحيث يصبح النص بدلالته المعجمية، وبتعبيره عن قائله وعصره.. أمراً ثانوياً لا قيمة له.. بل أمراً مرفوضاً أحياناً.. !!

هذه الإعادة للقراءة وهذا الإنتاج الجديد للنص.. عملان مرفوضان بكل المقاييس العقلية والأخلاقية... بل هما - كما قال كثير من المفكرين - بحق - تزوير من أعجب ما عرفت الحضارات من تزوير، ومصادرة لكل العقول والعصور في التعبير عن رؤيتها وطبيعتها، وقهرها كي تكون معبِّرة عن رؤية غير رؤيتها وطبيعة غير طبيعتها دون اعتبار للمنطق والعقل والحق!!

ففي كتابه عن جمال الدين الأفغاني بمناسبة مرور مئة سنة على وفاته كتب الدكتور حسن حنفي المفكر المصري يقول: إن دراسته تعتمد على منهج إعادة القراءة، وإعادة إنتاج النص، ونقله من ظروف القرن الماضي إلى ظروف هذا القرن، تمثلاً للأفغاني وروح عمله..[1].

- والجملة الأخيرة من هذا النص تنقض العبارات الأولى.. فتمثل الأفغاني وروح عمله يقتضي - بل يوجب - قراءته كما أراد الأفغاني نفسه، ويوجب - أيضاً - ربط النص بسياقه التاريخي والمعرفي وعدم فصله عن ظروف إبداعه!!

---

(١) حسن حنفي: جمال الدين الأفغاني، المئوية الأولى ١٨٩٧ - ١٩٩٧ م - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ م ص ٤٠ مصر.

– وفي كتابه «نقد النص» يتحدث «علي حرب» حديثاً يكاد يكون مطابقاً لحديث «حسن حنفي» عن القراءة الجديدة للنص.. فيقول:

«أن يكون النص منطقة للتفكير أو حقلاً للبحث معناه أنه يحتاج إلى قراءةٍ تحوِّلُه من مجرد إمكان إلى فعل معرفي منتج ولهذا فشرط القراءة وعلة وجودها أن تختلف عن النص الذي تقرؤه وأن تكشف فيه مالا يكشفه بذاته، أو ما ينكشف فيه من قبل.

وأما القراءة التي تقول ما يريد المؤلف قوله، فلا مبرر لها أصلاً، لأن الأصل هو أولى منها وما يغني عنها، إلا إذا كانت القراءة تدعي أساساً أنها تقول ما لم يحسن المؤلف قوله.. وفي هذه الحالة تغني القراءة عن النص، وتصبح أولى منه»..

«وهكذا ثمة قراءة تلغي النصّ، تقابلها قراءة تلغي نفسها هي أشبه بعدم القراءة وأعني بها القراءة الميتة التي هي نوع من اللغو أو الهذر والثرثرة، أما القراءة الحيّة فهي تقرأ في النص المختلف عن ذاته ما يختلف في الوقت نفسه عنه [١].

– ونكتفي بهذين النصَّين للاستدلال بهما على أننا أمام تأليف جديد، وإسقاطات دلالية جديدة، تحت ما يسمى «القراءة الجديدة» أو تحويل النص إلى فعل معرفي منتج جديد، بحيث تختلف القراءة عن النص الذي نقرؤه، بل – بكل وضوح – إلغاء دلالات النص، بحيث يكون النص ليس نصاً، ويقرأ الكاتب ما يريد أن يسقطه من فكره، فلو كان

(١) علي حرب، نقد النص «المقدمة» نشر بيروت.

رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من طلائع الإيمان، ومن دعاة التقدم والتنوير على أساس ثوابت الأمة، فيمكن تحويلهم إلى دعاة إلحاد، وقادة هدم للأديان كلها!!.

- ونحن نتساءل لماذا القراءة أصلاً؟

ولماذا نقرأ الآخرين إذا كنا سنفرض عليهم فكرنا وعصرنا، ونلغي أفكارهم وعصورهم؟!! وإذا لم يكن هذا تزويراً وإلغاءً، فماذا يكون التزوير والإلغاء إذن؟.

ولماذا نصر على توظيف الآخرين في الرعاية لأفكارنا والتّستُّر من خلفهم؟ ولماذا لا ندعو لأفكارنا بوضوح دون أن تختفي - ظلماً - وراء الآخرين للترويج لأفكار نعجز عن الإفصاح عنها!!

- ويزداد الأمر حدّة وتضليلاً إذا طبقنا هذا المنهج على النصوص المقدسة التي من وظائفها أن ترسم منهج الحياة للناس وتحدد علاقتهم بالله من خلال الشريعة.. فهنا يمكن إلغاء الوحي ويمكن تطويع كل قراءة للنصوص للأيديولوجيات المسبقة، والحكّام، والأهواء والتقلبات الفكرية والسياسية، حتى تُبرِّر الأوضاع المتردّية في كل عصر، وتبحث عن المخارج لكل أنواع الابتذال والانحطاط، وبالتالي تجري النصوص وراء تقلبات العصور بعد أن تفقد اتصالها بالثوابت الإنسانية التي تنظم علاقة الإنسان بالكون وخالق الكون والحياة والأحياء.

- ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن هذا هو المقصود الأسمى من وراء ما يسمى بإعادة إنتاج النص أو بقراءته قراءة جديدة، أو بتحقيق عصريته أو تحديثه، أو تأويله، إلى غير ذلك.

– وقد رأينا الصلة الوثيقة بين أصحاب هذا النهج وبين المركسة والعلمنة والاستغراب والصهينة، ووجدنا أنهم يقفزون من وراء تخصصاتهم، نقداً كان أو أدباً أو فلسفة أو فكراً إلى الطعن في الأديان، وإلى تأليه العقل على حساب النقل، بحيث يكون العقل وحده هو المعبود الذي لا شريك له من وحي أو نبوة.. وبالتالي ينتهي دور الأديان والثوابت والقيم المطلقة، وتَعبُدُ البشرية العقل وحده حتى لتبيح تحت مظلته المطّاطة زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة!

– وفي موقف من المواقف يعود الأستاذ «محمد أركون» – الكاتب الجزائري الفرنسي، إلى شيء من الحق بعد أن سقطت معظم مقولاته، الداعية إلى لاهوت العقل وحده، ولم تترك مقولاته وأطروحاته إلا الجراثيم السامة في تراث بعض الزاهدين في الحق، الراغبين في عبادة الدنيوية وحدها لا شريك لها.

– يعود «أركون» في حديث دار بينه وبين «أدونيس» إلى شيء من الحق، فيصرحُ أنَّ مشروعه الفكري يقوم على تحرير النص الأول، أي الوحي القرآني من النص الثاني، أي من تأويله وشروحاته، لأن هذا الأخير حجَبَ النصّ الأولَ وأسره، مشكِّلاً بذلك حجاباً كثيفاً حال بين المسلم وبين الوصول إلى الظاهرة الأولى التي هي «الظاهرة المعجزة» على حد تعبير «أركون» «مواقف عدد ٥٤» (١).

وعندما يصرح الأستاذ أركون بهذا الإيمان «الظاهرة المعجزة» تقوم قيامة تلميذه «الملكي أكثر من الملك» علي حرب فينبري للقول:

(١) علي حرب نقد النص ٦٦.

- ليس المهم ما يُصرِّح به أركون وإنما المهم منطق بحثه وبنية تفكيره، وليس المهم ما يقوله عن نفسه ويعترف به، بل المهم معنى أقواله، والأهم ما يحجبه ويسكت عنه ويبدو أن علي حرب وأمثاله يعلمون ما في الصدور!!.

- ولهذا فإني أعتبر - والكلام لعلي حرب - أنَّ اعتراف أركون في حديثه لأدونيس عن صلته الحميمة «بظاهرة الوحي» موقف إيماني عقائدي أو عشقي، لا موقف ناقد محلل»!!.

- ولكن للمسألة وجهها الآخر وهو الأهم - والكلام لعلي حرب فأركون يقوم بتفكيك بنية النص المفهومية والمصطلحية من أجل الكشف عن قواعد انبنائه وقواعد اشتغاله، «أي القرآن» بوصفه نصاً له بنيته الأسطورية!!» وله فعاليته المركزية، وطاقته البيانيه الجمالية «....» بل يقوم بعمل الحفر والتفكيك فيكشف عن المحجوب ويتكلم على ما هو مسكوت عنه، ويقرأ القرآن من خلال تاريخه (١).

- وتاريخيته - كما هو معروف عن هذه المدرسة - تعني بشريته، وأنه - أي القرآن - إنتاج ثقافي واجتماعي وإنساني!!

وبالطبع فنحن لا نستطيع أن نتتبع النصوص غير المعقولة! التي تمتهن المنطق والعقل واللغة. وتلعب بالكلمات والعقول، وتحرم البشرية من بناء الحضارات وفق ضوابط عقلية ولغوية محددة المعالم، وتجعل الفكر أو العقل الفردي مجرد لاعب بعقول الآخرين، مستخف بها، يلغيها ويفرض عليها رؤيته العبثية وألاعيبه الجدلية!!.

---

(١) المرجع السابق ص ٦٦.

وسلام على التراث الإنساني كله وعلى التراث الإسلامي بخاصة!.

وفي تعليقه على واحد من أكبر المشروعات في هذا الطريق الوعر المدمر للتراث الفكري الحضاري «الدكتور حسن حنفي» يقول الدكتور محمد عمارة.

وإذا نحن شئنا إيجازاً للمشروع الفكري للدكتور حسن حنفي من خلال كتابه هذا «التراث والجديد» الجامع «للمقدمات النظرية» لمشروعه كله فإننا نقول:

إنه محاولة أنسَنَةِ الدِّين «أي جعله إنتاجاً عقلياً إنسانياً كأي إبداع بشري» وتفريغه من محتواه بإلغاء ثوابته ومطلقاته ومقدساته من الله إلى النبوة... إلى الرسالة.. إلى الوحي.. إلى الغيب.. إلغاء كل ذلك.. بإعطائها مضامين ومفاهيم إنسانية أرضية... أي إلغاء الغيب كمصدر للمعرفة، وقصرها على عالم الشهادة، وقصر سبل المعرفة على العقل والتجريب وحدهما.. أي إلغاء كل ما يجاوز الحس والمشاهدة، وتأويل كل ما له علاقة بالدين والغيب والألوهية والنبوة والرسالة والوحي على النحو الذي يؤنسنه، ويجعله إفرازاً بشرياً..

- فنحن إذن - بإزاء استعارة لفلسفة «التنوير - الغربي - العلماني» يريد الدكتور حسن حنفي أن يتعامل بها مع الإسلام كما تعامل التنويريون الغربيون مع النصرانية الأوروبية إبان النهضة الأوروبية الحديثة [١]!!

ومن ثم يفضح الدكتور عمارة المشروع التضليلي التنويري لحسن حنفي فيقول:

---

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير ١٨٨ وما بعدها دار الشروق ١٩٩٥ م.

«يشبه الدكتور حسن حنفي التراث بالمخزون النفسي» وينتقد مذهب الذين يكتفون به.. ومذهب الذين يكتفون بالجديد - الاكتفاء الذاتي للتراث.. والاكتفاء الذاتي الجديد[١].

ويقدم مذهبه هو في التعامل مع هذا «المخزون النفسي» - التراث - مذهب التراث والتجديد، فإذا به تصفية لهذا المخزون وتَبخير له، وتخلص منه، لا «يرفضه» كما يصنع أنصار الاكتفاء الذاتي بالجديد وإنما بإعادة تفسيره التفسير الذي يجعله مساوياً تماماً لـ «جديد» أنصار «الاكتفاء الذاتي بالجديد» [٢].

فهو يلغيه ويصفِّيه، لكن باسمه وبلغته وتحت مظلته، وهذا منهج أذكى ولا نقل: «أخبث»! في التعامل مع هذا المخزون!! لأنه سبيل غير مباشر» في التصفية والإلغاء» أما الهدف والغاية فلا مساومة فيها، فمهمة «التراث والتجديد» هي التحرر من السلطة بكل أنواعها: سلطة الماضي، وسلطة الموروث، فلا سلطان إلا للعقل ولا سلطة إلا لضرورة الواقع الذي نعيش فيه، وتحرير وجداننا المعاصر من الخوف والرهبة والطاعة للسلطة، سواء كانت الموروث أو سلطة المنقول» [٣] «وبالطبع مهما كانت هذه السلطة على الحق»!!

- ونحن هنا - كما نرى - إزاء عملية خطيرة فسوف نجد بين أيدينا انقلاباً كاملاً يتلاعب بعقولنا، يشبه ذلك الانقلاب المرذول الذي كان يتلاعب به الماركسيون حين كانوا يعمدون إلى تطويع التاريخ والدين

(١) محمد عمارة - الإسلام بين التنوير والتزوير ص ١٨٩، راجع التراث والتجديد ص ٣٨.
(٢) التراث والتجديد، نقلاً عن محمد عمارة: الإسلام بين التنوير والتزوير ص ١٩٠.
(٣) د. محمد عمارة الإسلام بين التنوير والتزوير ص ١٩٠.

والفكر واللغة للرؤية الماركسية، فيمركسون الصحابة رضوان الله عليهم ويمركسون الإسلام وتاريخه، ويؤولون كل شيء وفق رؤيتهم المادية والصراعية والجدلية»!.

- وتجدر الإشارة إلى أن «حسن حنفي» - أوّل في أُطروحته: "Les methodes d, exegese «طرائق التأويل» الانطلاق من أسباب النزول لاستنتاج أن القرآن ليس وحياً من الله، وأنه يعبِّر عن تجربة محمد البشرية التي يمكن النفاذ منها إلى التجربة البشرية عموماً في بحثها عن حقيقتها الإلهية «أي رسالات كل الأنبياء» وهو ما يخوِّله تأويله - أي تنزيل القرآن - حسب حاجات الأمة الإسلامية - أي إن «الحاجات» في رأي حسن حنفي هي التي تقود القرآن، وليس القرآن هو الذي يقود الحاجات ويهذبها ويقننها ويحتفظ بدائرتها الإنسانية والأخلاقية والربانية.. وهكذا يبدو «حسن حنفي» طول عمره، رافضاً لله وللدين وللوحي السماوي مؤمناً - فقط - بالإنسان والإلهام الأرضي الذي يسميه «الوحي البشري» أي التجارب الإبداعية.

وأكثر هؤلاء اللادينيين خيانة حضارية أولئك الذين يزعمون أنهم مجددون يقومون بما يسمى «النقد اللاهوتي» على غرار ذلك النقد، اللاهوتي الذي عرفته أوروبا، ويزعم هؤلاء أن ذلك سبيل من سبل التقدم، متجاهلين الفرق بين اليهودية وتوراتها التي كتب في ألف سنة من خلال أكثر من مئة كاتب - باعتراف أصحابها أنفسهم!! من الباحثين الأكاديميين من غير اللاهوتيين!!

ومثلها الدين المسيحي الذي ليس له كتاب كالقرآن، وإنما له مجموعة أناجيل تنسب إلى بعض أصحاب المسيح، ومن جاء بعدهم، فالنقد

اللاهوتي ينصب أساساً على نقد هذه النصوص التي جمعت في فترة متأخرة ورويت عن أشخاص عاشروا المسيح أو عاشروا من عاشروه [١].

أما في المحيط الإسلامي، فهناك كتاب مقدس هو القرآن، لم يلحقه تغيير ولا تحريف منذ جمع في عهد عثمان (رضي الله عنه) ومن أكبر الأدلة على ذلك أن النزاع الفكري والمسلح الذي قام زمن عثمان بين أصحاب علي من جهة وأصحاب عثمان ومعاوية من جهة أخرى لم تبرز في أي تهمة بصدد النص القرآني الذي جمع في عهد عثمان.

لقد كانت هناك اتهامات متبادلة لا حدود لها وصلت إلى حد التكفير وإلى حد الفتنة والقتل ولكن لم نسمع عن أي واحد من خصوم عثمان يتهمه بأنه جمع القرآن مبتوراً، أو أحدث فيه هو أو غيره تغييراً [٢].

هذا بالإضافة إلى عشرات الأدلة النقلية والتاريخية والعقلية، التي تؤكد أن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو الذي حفظه المسلمون في صدورهم، وصلّوا به مع نبيهم (ﷺ)، في عصر الرسالة ثم في عصور الراشدين وتعبدوا بتلاوته، آناء الليل وأطراف النهار ، وقرأه المسلمون رجالاً ونساءً، في السِّلم وفي الحرب، ونقلوه إلى الأمصار نقلاً متواتراً. لدرجة أن القارئ قد يخطئ في كلمة أو حرف فيرده الناس مهما كان مركزه، ولم يجرؤ مجمع ديني، أو حاكم ديني مهما بلغ فسقه أو جبروته، أن يتدخل في تغيير حرف واحد منه!!

وكم حاول أعداء الإسلام طبع مصاحف، بها بعض التحريف، فقامت الأمة كلها بحرقها والثورة على فاعليها، وبقي القرآن

(١) محمد عابدالجابري: المسألة الثقافية في الوطن العربي ص ٢٨٠، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط٢، ١٩٩٩ م.

(٢) الجابري - المرجع السابق ص ٣٧٩.

تنقله الأجيال، «حجة لله على الناس» وكلمة خاتمة لوحي السماء!!

وإذن فهو نوع من العبث والإفساد في الأرض، القول بإمكانية إيجاد نقد لاهوتي للقرآن على غرار التوراة والأناجيل، وكما يقول الأستاذ محمد عابد الجابري:

– فمثل « هذا النقد اللاهوتي لا يمكن ممارسته على القرآن، لأنه ثبت أنه هو نفسه الذي نزل على النبي، وليس هناك ما يبرر أي شك في هذا، وبالتالي فإن النقد اللاهوتي بالمعنى الأوروبي الحديث، غير ذي موضوع بالنسبة للفكر الإسلامي» (١).

ويبدو أن هذا العبث ظاهرة مكرورة في التاريخ، وأنه منهج يظهر في بعض عصور الضعف والهوان تقليداً للغالب وذوباناً فيه، وطمساً للهوية والشخصية تحت شعارات تسمح بتمرير هذا الذوبان وهذه التبعية وخداع النفس والآخرين.. ولربما كانت هذه الظروف الأسيفة هي الدافع لظهور بعض المذاهب المتشددة في التفسيرات الحرفية للنصوص، حتى ولو كانت ضعيفة الثبوت على حساب القياس وإعمال العقل، وهي المدارس التي تسمى «مدارس الظاهر» أو مدارس الفهم «الظاهري» المرتبط ارتباطاً كاملاً بدلالات النص اللغوية الظاهرة والرافض لأي مجازات.. أو تفسيرات إشعاعية.

ونحن نعتقد أن هذه المذاهب الأثرية والظاهرية كان لها مبررها العَقَدي والتاريخي، فقد تألقت في مواجهة عصور التصوف التأويلي والتأويلات التحريفية.

---

(١) الجابري: المرجع السابق ص ٣٨٠.

وقد عقد ابن حزم الأندلسي «ت ٤٥٦ هـ» فصلاً خاصاً في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام» عن ضرورة حمل الأوامر والأخبار على ظواهرها» (١).

ومن خلال أحاديث ابن حزم نستخلص أنه كان يستعمل مصطلح الظاهر الذي نسب إليه منهجه الفكري، بمعنى « الخروج من الخفاء - التأويل» اعتماداً على المعنى الواضح البارز بذاته الذي يستنبطه العقل على البديهة بحكم منطوق اللغة ودلالة مفهوم خطابه الذي يبدو للسامع وفق استعمال العرف والعادة (٢).

ومن قول ابن حزم المبين لذلك:

«واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن فيه، وجهر لا سرّ تحته. كله برهان لا مسامحة فيه، واتّهِموا كل من يدعو إلى أن يتبع بلا برهان. وكل من ادعى الديانة سراً وباطناً فهي دعاوى ومخاريق واعلموا أن رسول الله لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها... ولا كان عنده (ﷺ) سر ولا رمز ولا باطن (٣).

وإذا كان علي حرب قد ضاق ذرعاً بأستاذه ومعلمه محمد أركون عندما أصر على إيمانه بارتباط النص الأول - القرآن - بالوحي وإيمانه الذي جاء متأخراً - بأن الاجتهاد أو التأويل يجب أن ينصب على تخليص النص الأصلي من الاجتهادات التراثية البشرية.. فإننا

(١) الإحكام الجزء الثالث الباب الثاني عشر.

(٢) انظر ابن حزم الرد على ابن النغريلة اليهودي ووسائل أخرى ص ٩٤.
تحقيق إحسان عباس - دار العروبة- القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م.

(٣) ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل ١١٦/٢ طبع المثنى بغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة.

سنجده يظهر التبرم نفسه من الدكتور نصر أبي زيد لأن هذا الأخير لم يعلن - بالوضوح الذي يريده علي حرب - الرفض لارتباط القرآن بالوحي والمتعالي والإعجاز الرباني...

يقول علي حرب في مناقشة لنصر أبي زيد تحت عنوان «التلفيق المنهجي» ولْنلاحظ هنا رداءة العنوان.. يقول علي حرب «مالا يتوقف أبو زيد عن التشديد عليه وترداده على امتداد خطابه أنه يحاول فهم النص فهماً علمياً لا فهماً غيبياً أسطورياً، وذلك بالتعامل معه باعتباره منتجاً ثقافياً، وبالاعتماد على منهجٍ قوامُه، أن الواقع هو المدخل إلى فهم النص.

«إن النص في حقيقته وجوهره - كما يرى حرب - مُنتج ثقافي، والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاماً، وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو متفقاً عليها، فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ويعكّر - من ثَم - إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النص لكن أبا زيد سقط في رأي علي حرب حين قال:

«إن الإيمان بالمصدر الإلهي للنص ومن ثم لإمكانية أي وجود سابق لوجود العيني في الواقع والثقافة، أمر لا يتعارض مع تحليل النص من خلال فهم الثقافة التي ينتمي إليها «مفهوم النص ص ٢٤» وهذا كلام كما يزعم حرب هو «في منتهى التلفيق» [١] بل إن حرباً يعد هذا النص.. «النص الفضيحة».

---

(١) علي حرب نقد النص ص ٣٠٩.

ومرة أخرى نقول: إن التأويل - بهذا المستوى - الماركسي» الذي يتدنى إليه أمثال علي حرب وحسن حنفي، خطر على العقل البشري والتراث الإنساني كله، وقد رأينا من خلال العرض السابق أنه خطر حتى على بعض أصحابه.. فها هو حرب لا يعجبه محمد أركون ولا نصر أبو زيد.. فهما عنده ملفقان متناقضان، والنار - كما يقولون - تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله»[1].

وإذا كنا لا نميل إلى القول بالظاهر الذي يكاد في بعض الأحيان يقتل دلالات اللغة المجازية المنقولة من المعاجم المعتمدة والمجامع المعتبرة، ويرفض كل تأويل حتى ولو كان يدخل بوضوح شديد في إشعاعات النص ومجازاته، ويخضع لضوابط التأويل المحمود المقبول عقلاً ونقلاً ولغةً.

إذا كنا كذلك فنحن أيضاً نرفض التأويل المعاصر الخاضع للأهواء والشهوات النفسية والإسقاطات الفكرية ونراه خطراً على العقائد واللغات والآداب والحضارات..

وفي مجال الأديان بعامة والدين الإسلامي بخاصة نجد كثيراً من العلماء في القديم والحديث، قد رصدوا خطورة التأويل وآثاره المدمرة على حقائق الأديان بعامة.

كما أن كثيراً من العلماء قد استفاضت أقوالهم في الحديث عن جناية التأويل الباطل على الإسلام وعلى كل الأديان، وقد أفاض في هذا ابن القيم - رحمه اللَّه تعالى - فذكر أن التأويل والفتن كبيرها

وصغيرها إنما وقعت بالتأويل وأعداء الإسلام إنما سلطوا علينا بالتأويل ودماء المسلمين إنما أريقت بالتأويل.

وافتراق اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة، والنصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وافتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة إنما أوجبه التأويل.

وما دخل أعداء الإسلام من الفلاسفة المنحرفين والقرامطة والباطنية والإسماعيلية إلا من باب التأويل.

وما سلط سيوف التتار على دار الإسلام غير التأويل [١].

ولا يخلو الأدب والنقد والفن والتاريخ والفلسفة من آثار هذا المنهج التأويلي المزاجي الإسقاطي، فطبيعة المنهج أن آثاره ممتدة.. تكاد تنتظم كل الميادين التي تتعامل معها، بل إن هذا الأدب الهابط - شعراً ونثراً الذي يتبنى مقولات الإلحاد والهدم والانحلال - إنما هو في الحقيقة رشح للتأويلات المزاجية والإسقاطات الفكرية فضلاً عن ارتباطه بتيارات تقوده إلى أهدافها، وهو يعلم في أكثر الأحايين - وقد ينقاد - جهلاً في أقل الآحايين!!

(١) التأويل خطورته وآثاره ص ٦٦، ٦٧ د. عمر سليمان الأشقر نشر دار النفائس، الأردن ط١/١٤١٢ هـ.

القسم الثاني

نحو القيادة والتمكين

(كنتم خير أمة أخرجت للناس)

أولاً

القيادة الصحيحة للأمة :

حين يتمّ التعاون بين الأمراء والعلماء

(شواهد من التاريخ)

١ - التعاون بين أولي الأمر والعلماء هو الأصل في حضارتنا

إنني أعتقد أنني لن أكون مبالغاً حين أقول: إن كثيراً من الخلفاء الأمويين والعباسيين قد ظُلموا، وإن كثيراً منهم كانوا - في الحقيقة - خلفاء صالحين يتعاونون مع أهل العلم والدعوة والورع تعاوناً كاملاً.

وإنني أعتقد أنه من الواجب عبور كثير من هذه الفترات الصالحة، لأن أصل العلاقة فيها كان قائماً على التعاون بين أهل السياسة وأهل الدعوة والفقه والعلم.

ولهذا فإنني أعبر بعض الخلفاء العظماء المشهورين من آل العباس، من أمثال محمد المهدي، وهارون الرشيد، لأنني أرى أن إبراز هذه المعاني عند هؤلاء من باب تأكيد المعروف والمتفق عليه من المنصفين.

كما أنني أيضاً عمدت إلى تجاوز العصور المزدهرة غالباً حتى لا يُحتج بأنني ركزت على المشهورين الذين يمثلون - في رأي المتحيزين ضد تاريخنا- الشذوذ والاستثناء.

ولهذا الالتزام - كذلك - فإنني لا أرى الوقوف عند عمر بن عبدالعزيز حين يكون الحديث عن بني أمية، وأيضاً فإنني لا أقف عند محمد المعتصم العباسي (٨٣٣ - ٨٤٢ م) صاحب عمورية العظيم، ولا أرى الوقوف عند هارون الواثق، أو جعفر المتوكل الذي قاوم حركة ظلم الاعتزال، وأنهى الظلم الذي وقع على أهل السنة.

وسوف أقفز لأقدم نموذجين من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) استغرق حكمهما نحو ستين سنة،

وهذا القرن الخامس - كما هو معروف - من القرون التي تحسب من عهود ضعف الدولة العباسية..

في هذه الفترة كان الخليفة في بغداد المقتدي بأمر الله العباسي الذي حكم عقدين من الزمان (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) واحداً من خليفتين حكما في النصف الثاني من القرن الخامس.

ويكاد يجمع المؤرخون على أن المقتدي كان يتمتع بأخلاق طيبة، وأن من صفاته حبه للدين والخير، وكانت نفسه قوية، وهمته عالية، وذا شجاعة وشهامة، وكل أيامه خير وبركة، حسن السيرة والسريرة[١]، ويصفه ابن كثير - أيضاً- بأن فضائله عالية، وغيرته على حريم الناس لا تضاهى، يأمر المعروف وينهى عن المنكر، ويمتاز بالعدل والصلاح والتقوى ولين الجانب وكثرة العلم[٢].

وكان المقتدي حريصاً على أخلاق الناس ودينهم، ولذلك عمل منذ خلافته على تطهير بغداد من عناصر الفساد والفجور، وخرّب الخمارات، ودور الزواني والمغاني[٣]. وقد تابع التطهير كلما ظهر ما يوجبه[٤].

وكانت المدارس الفقهية هي الظاهرة اللافتة للنظر، لأنها تعكس تطور الحركة الفقهية وعلم الحديث والتفسير والآداب واللغة، لأنها جميعاً كانت مواد التدريس التي يتلقاها طلاب هذه المدارس، وكان

(١) ابن القلانس: ذيل تاريخ دمشق، ١٢٦، طبعة بيروت.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٤٦/١٢، دار صادر بيروت.
(٣) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٦، دار النفائس بيروت. ط١/١٤٠٤ هـ
(٤) ابن كثير: البداية ولنهاية ١١١/١٢.

انتشار المدارس بمدينة بغداد في عصر السلاجقة هو الحدث الأكبر والأهم الذي حققته الحضارة الإسلامية، وتعد بحق قفزة كبيرة في سلم التطور العلمي بعد أن كان التدريس محصوراً في المساجد وبعض الكتاتيب.

وقد أنشئت المدارس لخدمة المذاهب الفقهية ولتغذية أجهزة الدولة بالقدرات العلمية اللازمة (١).

وقد احتل الفقهاء ورجال العلم منزلة رفيعة في المجتمع الإسلامي بمدينة بغداد في أيام المقتدي بالله العباسي، وأسهموا في معظم الأحداث التي شهدتها المدينة الخالدة بإذن الله (بغداد) وازدهرت في هذه المرحلة مذاهب الفقه السنية الثلاثة: مذهب الإمام أحمد بن حنبل ومذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام أبي حنيفة (٢).

أما الخليفة المستظهر أبو العباس أحمد المقتدي فقد حكم بين سنتي (٤٧٠ - ٥١٢ هـ) ويصفه المؤرخون بأنه لين الجانب، كريم الأخلاق يحب اصطناع الناس، ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال البرّ والمثوبات (٣)، وكان مؤثراً للإحسان، حافظاً للقرآن، محباً للعلم، منكراً للظلم، وكان مشكور المساعي، لم يردَّ مكرمة تطلب منه وكان كثير الوثوق بمن يوليه، غير مصغ إلى سعاية ساع، ولا ملتفت إلى قوله، ولم يعرف منه تلوث وانحلال عزم، بأقوال أصحاب الأغراض (٤).

---

(١) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد. ص٥٦.

(٢) محمد حسين شندب: المرجع السابق، ص ٦٠، ٦١.

(٣) عز الدين أبو الحسن بن الأثير: الكامل، ص ٥٣٥، طبعة دار صادر، بيروت. وانظر محمد حسين شندب، المرجع السابق،٨٥. ٨٦.

(٤) ابن الأثير: المكان السابق، ص ٥٣٥، والمرجع السابق ١٨٧.

وكان جميل السيرة متصفاً بالعدل والإنصاف، ناهياً عن قصد الجور والاعتساف، سمحاً جواداً، هيناً ليناً، حسن المعشر، قد حسّن الله خَلْقَهُ وخُلُقهُ، وبره وأدبه، نقش خاتمه «ثقتي بالله وحده»، يحب العلماء والصلحاء، كبير الهمة، سهل العريكة. وكانت أيامه أيام سرور للرعية فكأنها من حسنها أعياد، وكان حسن الخط، جيّد التوقيعات[١].

وقد تميزت العلاقة بين المذاهب الإسلامية في عهد المستظهر بالصلح، والمودة، والاحترام، وهذا كان بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها الخليفة في معاملة عامة الناس.

ويعدّ عهد المستظهر من أزهى العهود التي عرفها أهل الذمة ببغداد؛ لان المستظهر حرص على معاملاتهم بالحسنى وقرّب زعماءهم.

٢ - صور من التعاون في العصر الأيوبي:

بوفاة عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ، فقد المسلمون عَلَماً فذاً قاوم الصليبيين بضراوة وعمل على توحيد المسلمين، لكنهم سرعان ما وجدوا أن بذوره الصالحة قد تركت وراءها ابناً كريماً من أبنائه هو نور الدين محمد الذي كان في الثلاثين من عمره حين مات أبوه.. فشقّ طريقه ليحمل الراية الإسلامية ومضى يؤدي الرسالة بالمستوى نفسه الذي كان عليه أبوه رحمه الله.

كان لنور الدين فضل في صد الحملة الصليبية الثانية، والقضاء على الخونة الأرمن الذين تواطؤوا مع الصليبيين، كما قضى على الخونة

---

(١) ابن الاثير: ٥٢٦/١٠، وانظر ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٢٩٤/٨، حيدر أباد - الهند - سنة ١٣٥٨ هـ.

المسلمين من أمثال الخبيث «معين الدين أنر» وتابعه والي بصرى التونتاش، وضم نور الدين دمشق إلى الجبهة الإسلامية كما أن ضمّ مصر إلى الجبهة يُعد مأثرة من مآثره.

وقد سار صلاح الدين على الدرب نفسه الذي سار عليه عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، فقام بتوحيد الشرق الإسلامي، واستولى على دمشق بعد وفاة نور الدين، وضمها إلى مصر مع كثير من بلاد الشام، كما فتح أخوه توران شاه بلاد اليمن، وبعد ذلك نجح صلاح الدين في ضم حلب، والجزيرة، والموصل، وبذلك ضم صلاح الدين الأقطار الإسلامية في نظام اتحادي يمكنّه من إعلان الجهاد ضد الصليبيين، بعد أن يكون قد أمّن الخطوط الخلفية لنشاطه العسكري، وضمن موارد عسكرية، وبشرية وتموينية كافية لقتال الأعداء (١).

ولم يلبث صلاح الدين أن هاجم المناطق والمدن التي كان الصليبيون قد احتلوها، وأسسوا فيها إمارات مضى على قيامها نحو قرن من الزمان، فانتصر في موقعة «مرج عيون» في لبنان - سنة ٥٧٥ هـ، واستولى في السنة نفسها على حصن الأحزان وأسر من فيه، وحطم مغامرة «ريجنالد» في الاستيلاء على الحجاز.

وفي سنة ٥٨٣ هـ زحف صلاح الدين على رأس جيش إسلامي كبير سار به من دمشق، استولى على حصن الكرك وطبرية، وهناك قريباً من طبرية دارت رحى معركة (حطين) الخالدة (٥٨٣ هـ) بين جيش المسلمين

(١) د. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، ص ١٣٨ طبع بيروت.

الموحد، وبين الجيوش الصليبية بقيادة ملك القدس وأمراء صور، وعكا، والناصرة، والكرك.. وكانت معركة حاسمة انتصر فيها السلطان صلاح الدين، وأنزل بالفرنج هزيمة ساحقة [١]، وأسر ملك القدس «لوزينان»، والمغامر رجنالد حاكم الكرك، ومعظم قواد الجيش و(١٤) ألف جندي وقتل منهم (٩) آلاف، وزحف صلاح الدين بطل الوحدة الإسلامية المنتصر فاستولى بسهولة على عكا، وصيدا، ويافا، وبيروت، ونابلس، والرملة، ودخل القدس ظافراً في رجب ٥٨٣ هـ، وكانت تلك نهاية عظيمة لمسيرة التوحد التي بدأت بعماد الدين زنكي.

وجدير بالذكر أن عدداً من الدعاة والعلماء قد وقفوا مع هؤلاء الأبطال الثلاثة (زنكي، ونور الدين، وصلاح الدين)، وكان على رأس هؤلاء المؤرخ بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن شداد(٥٣٩/٦٣٢ - ١٤٤٥/١٢٣٤)، والفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري (ت ٥٨٥ هـ)، والمؤرخ المعروف عبد الله محمد الأصفهاني المعروف بالعماد الكاتب (٥١٩ - ٥٩٧ هـ/١١٢٥ - ١٢٠٠ م). الذي كان قلمه كما يصفه المؤرخون أشد وأنكى، على الصليبيين من سيوف المجاهدين، إذ به جمع صلاح الدين عساكر المسلمين، وبأسلوبه البليغ المؤثر ألف بين قلوبهم، وحبب الاستشهاد إلى نفوسهم، وآية ذلك قوله: «وكان يأمرني بإجابة كتب الملوك في حالتي سلمهم وحربهم، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمي» وشهد مؤرخو الغرب للعماد الكاتب بالصفات الحميدة، ووصفوه بالتدين ونبل الخلق[٢].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) نظير حسان سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي، ٣٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢ م.

ويعد أبو علي محيي الدين بن علي البيساني العسقلاني (٥٢٦ - ٥٩٦ هـ/ ١١٣٥ - ١١٩٩ م)، المعروف بالقاضي الفاضل - من أشهر من وقفوا مع صلاح الدين الأيوبي في ميدان التعاون على صلاح الدين والدنيا وتحقيق النصر، - وكان القاضي الفاضل يتميز بأنه موضع ثقة صلاح الدين ومستشاره الأمين، ومن ذلك ما يروى من أن صلاح الدين كتب إلى القاضي الفاضل وهو على حصار عكا ١١٩٠م. يشكو إليه مسلك أمراء المسلمين معه، وضجرهم من طول الإقامة للجهاد، فرد عليه القاضي الفاضل ناصحاً بسعة الصدر معهم، ورأى أن يكون إلى جوار صلاح الدين، ناصحاً ومشيراً ومسكِّناً لثورة الأمراء، فغادر القاهرة فوراً وعاد إلى عكا فوصلها في يناير سنة ١١٩١م.

ولم تكن تلك المشورة مقصورة على شؤون الدولة والحكم، بل تعدتها إلى شؤون صلاح الدين الخاصة، منها أن صلاح الدين عزم على الحج والزيارة بعد عقد صلح الرملة (٥٨٨ هـ/١١٩٢ م)؛ فأشار عليه القاضي الفاضل بتأجيل ذلك إلى سنة أخرى، لأسباب عرضها عليه؛ مؤيداً إقناعه بفتوى دينية نصها «إن الانقطاع لكشف مظالم الخلق، أهم من كل ما يتقرب به إلى اللَّه» (١).

ومن هذه النماذج - وغيرها كثير جداً - يتأكد لنا أن التعاون كان كاملاً بين علماء الدين، ورجال الدعوة، والفكر، بين الأمراء والقادة، وكانت نتيجة هذا التعاون الانتصارات المعروفة التي حققها الأبطال

(١) المصدر لسابق، ص ٣١: ٣٢.

الثلاثة، عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، رضي الله عن الجميع وجزاهم عن الإسلام خيراً.

٣ - التكامل بين الساسة والدعاة في العصرين المملوكي والعثماني

يؤكد كثير من المؤرخين الثقات أن الشريعة الإسلامية كانت هي المصدر الوحيد للتشريع والقضاء في العصر المملوكي، وكان الفقهاء هم القائمين على حراستها والاستنباط منها.

ويوضح لنا الأستاذ حنفي محمود خطاب ما كان لعلماء الدين من سطوة ونفوذ في الدولة المملوكية بصفة عامة فيقول:

«إن الدين كان منبع القانون بين الناس، وكان سلاطين المماليك لا يعرفون أحكام الشريعة الإسلامية، أو وسائل تطبيق تلك الأحكام، لأنهم عاشوا عيشة عسكرية منذ نشأتهم، ولم يعرفوا من شؤون الدين سوى ما تلقنوا من مبادئه الأولى في شبابهم الأول بثكنات القلعة وطباقها، وكان من الطبيعي أن يترك المماليك لرجال الدين تلك الناحية من شؤون الدولة» (١).

وقد برز من علماء الإسلام في هذا العصر كثيرون على رأسهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام (سنة ٦٦٠ هـ)، وتقي الدين عبدالوهاب ابن بنت الأعز قاضي قضاة الشافعية (سنة ٦٥٤ هـ)، وهو صاحب مواقف مشهورة، وشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨ هـ)، وهو أشهر من أن نقف عنده!!.

---

(١) حنفي خطاب: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى (رسالة ماجستير، ١٩٤٣، جامعة القاهرة) ص ١٢١.

وكانت مكانة علماء الإسلام بارزة على المستويين الشعبي والرسمي، فلم تكن تتم بيعة الخليفة أو السلطان إلا بحضورهم.

وقد وقف العلماء وقفات مشرفة وجريئة ضد السلاطين، ورفضوا الإفتاء على هواهم ورغباتهم؛ كما فعلوا مع السلطان الظاهر برقوق عندما شكا لهم بأن الخزائن خالية من الأموال، والعدو (المغول) زاحف على البلاد، وأنه يريد أخذ نفقة العسكر من مال الأوقاف المرصدة للجوامع والمدارس، فلم يوافقوا على ذلك، بل أكثر من ذلك أغلظوا على السلطان القول، لكن لما طال الأمر اتفقوا مع السلطان بأن يؤخذ من مال الأوقاف وخراج الأراضي سنة كاملة فقط، وتبقى الأوقاف على حالها، وهذا يُعد انتصاراً شبه كامل لاحتجاج علماء الدين، كما كان لعلماء الدين دور كبير في الأزمات وعند وقوع البلاء [١].

وقد حظي علماء الدين بمكانة كبيرة في عهد السلطان المملوكي الظاهر برقوق (٧٨٤ - ٧٩١ هـ) فقد كان يوقرهم ويحبهم، ويقوم للفقهاء إذا دخلوا عليه.. وحتى هؤلاء الذين أخطأ في حقهم مثل الشيخ شهاب الدين الشافعي... الذي ما إن وصل إلى علمه أنه كثير الورع والزهد حتى أرسل خلفه واعتذر إليه، ومن ثم أعاده إلى بلده مكرماً [٢].

وفي عهد السلطان المملوكي المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) ارتفعت مكانة العلماء؛ نظراً لأن السلطان نفسه كان متديناً، وكان يحب الدين

---

(١) شريفة المنديل: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الثانية (رسالة ماجستير، كلية الآداب للبنات في الرياض، ١٤٠٩ هـ) ص١١٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٠.

وينقاد للشرع في جميع أموره وأحواله، يدلنا على ذلك أن السلطان نفسه كان يخرج وقت الأزمات واشتداد البلاء، وهو لابس جبة صوف بيضاء وعلى رأسه عمامة صغيرة، متجرداً من جميع ملابسه السلطانية الفاخرة، يخرج وبصحبته الخليفة والقضاة وسائر علماء الدين، ثم يصلي من غير سجادة، ويمرغ وجهه في التراب، ويبكي تضرعاً للّه تعالى [١].

وقد كان للعلماء كلمة مسموعة وأمر نافذ لدى السلطان عند استشارته لهم في أي أمر؛ فعندما اجتمع السلطان بهم عام ٨٧١ هـ (١٤١٨ م) واستشارهم في أمر قتال يوسف، أفتوا بجواز قتاله نتيجة لسوء أفعاله وسوء سيرته، فما كان من السلطان شيخ إلا أن أسرع في تجهيز العسكر تنفيذاً لذلك [٢]، وعندما رفض القاضي جلال الدين البلقيني أن ينفذ ما أراده السلطان من الخطيب عند ذكر اسمه بالدعاء في الخطبة، أن يهبط درجة حتى يكون ذكر اسم الله تعالى ورسوله في مكان أعلى من المكان الذي ذكر فيه اسمه، لم يعارضه في ذلك، على الرغم من أن قصد السلطان من ذلك هو التواضع والخضوع للّه تعالى ورسوله الكريم، كما أن بعض الجوامع قد فعلت ذلك مثل جامع الأزهر وجامع ابن طولون [٣]، مما يدل على مدى قوة كلمة علماء الدين ونفاذها حتى على السلاطين أنفسهم وتوجيههم إياهم إذا أخطؤوا في الاجتهاد.

وكان السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥ - ٨٤١ هـ) منقاداً للشرع يحب الفقهاء ويقربهم.. وكانت له ثقة بالقاضي عبد اللّه عبد الباسط؛

---

(١) ابن إياس محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٢، ص ٤٦، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٣ هـ.

(٢) المصدر السابق، ٣٩/٢ - ٤٠. وانظر: شريفة المنديل: مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٣) المرجعان السابقان.

فكان منقاداً له كما ينقاد الطفل إلى أبيه.. وله كلمة مسموعة لديه؛ يدلنا على ذلك أنه عندما تضرر الناس بسبب أمر السلطان بعدم زراعة قصب السكر إلا للسلطان فقط، تكلم معه القاضي عبد اللَّه عبدالباسط في ذلك فعندئذ أذن للناس في زراعته(١).

وكان لعلماء الدين دورهم في توجيه السلطان إذا أخطأ في الاجتهاد، فمن ذلك أنه وقع الطاعون الكبير في الديار المصرية والذي سمي فيما بعد (بالفصل الكبير) لأنه انتشر في جميع نواحي بلاد العالم، فلما رأى السلطان ذلك اجتمع بالخليفة، والقضاة الأربعة ومشايخ العلم، واستفتاهم في ذلك، وقال: أخرج أنا والناس إلى الصحراء ونستسقي هناك، فعارضه أحد علماء الدين في ذلك وقال له إن ذلك ليس من فعل السلف، وإنما ذلك من سوء أفعال الناس وفتنتهم، حيث يبعثه اللَّه تعالى عقوبة لهم على ذلك (٢).

وقالوا للسلطان: إنه لا بد من أن يمنع المظالم التي كثرت في البلاد، ويبطل المكوس ويمنع خروج النساء وهن متزينات إلى الأسواق، كما يأمر الناس بكثرة الدعاء والاستغفار، وانفض المجلس على ذلك، وعمل السلطان بكل ما قرره معهم.

وقد كان السلطان يستشيرهم في كثير من أموره التي يعجز أن يجد حلاً فيها، حيث يجد عندهم الحل الكافي والجواب الشافي، كما فعل عند استشارتهم فى أمر زكاة الأموال الظاهرة والباطنة للناس.

---

(١) ابن إياس: ١٥٣، وشريفة المنديل، ص ١٢٦.

(٢) المقريزي: السلوك ٢/٤ ص ١٠٢١ (نقلاً عن شريفة المنديل: مرجع سابق، ص ١٢٧).

وكان السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ) يكثر من فعل الخير والبر، شديد التدين، وقد بشر الصالحين بسلطنته.. ولقي في عهده علماء الدين كل حظوة وتقدير واهتمام، وكان يسعى لتطييب خاطرهم ويرضيهم بشتى الوسائل، فمن ذلك ما وقع بين قاضي القضاة سعد الدسيري، وبين قاضي القضاة شهاب الدين ابن حجر من تشاجر، وما أدى إليه ذلك التشاجر من عزل القاضي ابن حجر نفسه عن القضاء، فسعى السلطان إلى تطييب خاطره، فأعاده إلى منصب القضاء، وخلع عليه وأكرمه.

وكان يهتم بالعلم والعلماء وحضور الحفلات التي يقومون بها من أجل ذلك، ومن ذلك حضوره لحفلة قام بها شهاب الدين بن حجر بسبب انتهائه من تأليف كتاب (فتح الباري في شرح البخاري) (١).

وقد كان أكثر السلاطين المماليك يخضعون لشروط بعض القضاة، مما يدل على مدى المكانة الكبيرة التي وصلوا إليها، لدرجة أنهم وصلوا إلى الاشتراط على السلاطين (٢). وفي عهد السلطان قنصوه الغوري (ت ٩٢٢) عارض علماء الدين رغبة السلطان في أخذ أموال الأوقاف والنفقة بها على الأمراء والمماليك.

وفي عهد السلطان الغوري - أيضاً - حدثت كائنة عجيبة لعلماء الدين عامة والقضاة بشكل خاص، وهي أنهم عزلوا جميعاً بسبب معارضتهم

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ٢٠٧/٢، وشريفة النديل ١٣٠.
(٢) شريفة المنديل، مرجع سابق ١٣١

لرأي السلطان في مسألة شرعية، فغضب السلطان منهم وعزلهم جميعاً في وقت واحد، حتى إن مصر بقيت حوالي خمسة عشر يوماً لم يعقد فيها نكاح ولا وقع فيها أي حكم من أحكام الشريعة (١).

وتدلنا الحادثة على مدى جرأة علماء الدين، وعلى مدى قوتهم في مواجهة الظلم والخطأ، حتى ولو كان ذلك سبباً لعزلهم وإقصائهم عن وظائفهم.

ولم ينقص ذلك كله من مدى عزمهم وقوتهم، بل على العكس زاد من قوتهم ومقدرتهم، وزادت قيمتهم عند الناس والأمراء، فقد كان لهم الدور الكبير الفعال في تولي السلطان طومان باي فعندما قتل السلطان الغوري عام ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) وقع اختيار الأمراء على سلطنته فامتنع من ذلك غاية الامتناع ولكن الأمراء الحوا عليه وأجبروه بحجة أنه ليس هناك سلطان غيره، فوافقهم وخاصة بعد أن ضغط عليه الشيخ أبو السعود الجارحي، الذي أتى بالمصحف وحلف الأمراء عليه، على أنه إذا تسلطن الأمير طومان باي لا يغدرونه ولا يخامرون عليه ولا يطالبونه بنفقة، وينتهون عن مظالم المسلمين فحلفوا على ذلك، وانتهى الأمر على سلطنة طومان باي على ذلك (٢).

وقد بقي الأمر بين طومان والعلماء على ذلك، لكن عهد طومان باي لم يستمر إلا سنة واحدة، فقد استولى العثمانيون على مصر سنة ١٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)، وحملوا الراية..

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٨، ١٣٩.
(٢) المرجع السابق نفسه.

لكن العلماء - على أي حال وكما تدلنا الوقائع السابقة - كان لهم وجودهم الشرعي، وقد أدوا واجبهم في صياغة المجتمع صياغة إسلامية.

وقد كان العثمانيون - في أصلهم - قبائل تركية فرت من بلاد آسيا الوسطى أمام الزحف المغولي، وقد أسلم جدهم (عثمان طغرل) واستوطن وأتباعه بلاد الأناضول، ومن ثم نجح في تشكيل دولة تنسب إليه، فاتخذ مدينة - (قره حصار) قاعدة له، واستقل بعد مداهمة المغول للسلاجقة، وأصبح ملاذ الكثير من المسلمين الذين يفرون من وجه التتار، وخاصة أنه أول من اعتنق الإسلام من أمراء قومه، ولهذا انتسب إليه الخلفاء من بعده دلالة على ارتباطهم بالإسلام وليس بالعصبية، وتوفى في سنة ٧٢٧ هـ، وكان خلفاؤه من بعده قد أخذوا على عاتقهم جهاد البيزنطيين. وتقدم العثمانيون في أوروبا وفتحوا مناطق واسعة، وأخيراً تمكن محمد الثاني من فتح مدينة القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ، وغدا اسمها (إسلام بول) ويُطلق عليها (استانبول) (١).

ولم يكن انتصار الغازي محمد الثاني في القسطنطينية هو أول نصر كبير يحرزه آل عثمان، ولكن (الرمز) أو القيمة المعنوية لهذا الانتصار قد طغت على كل ما عداها من القيم.

لقد أحرز الفاتح أول انتصاراته وأضخمها عل ضفاف البسفور، وهو ابن اثنين وعشرين عاماً (٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م)، فلم يداخله الغرور لما

---

(١) إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، الجزء الأول، ص ١٥١، ١٥٢. ط/دار المريخ الرياض، ١٤٠٤ هـ.

أحرزه، ولم يأخذه العجب بما أنجزه وحققه، فمضى للصلاة في مسجد (أياصوفيا) شاكراً للّه على ما منحه من النعمة، وأطلق على المدينة المحررة فوراً اسم مدينة الإسلام (إسلامبول)، وأسرع إلى موضع استشهاد الصحابي (أبي أيوب الأنصاري) الذي استشهد في حصار القسطنطينية أيام معاوية بن أبي سفيان (٥٢ هـ) فأقام عليه مسجداً مبرهناً على أن الفتح العظيم لم يكن إلا امتداداً لجهاد العرب المسلمين من أجل رفع راية الإسلام والمسلمين.

وعرف الفاتح أن هذا النصر لا بد أن يستثير حقد الحاقدين من الفرنج والصليبيين فمضى مجاهداً في سبيل اللّه، محتسباً الأجر والثواب على اللّه، فأتعب الدنيا وأتعبته حتى خرج من الدنيا مخلفاً للمسلمين فخر الدنيا وعزة الإسلام [١].

٤- التكامل بين أمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار

لم تكد جحافل الصليبيين تنحصر عن الشرق الإسلامي حتى نكب العالم الإسلامي بمحنة أخرى أشد وأقسى... إنها محنة الغزو الكاسح المدمر الذي شنه التتار القادمون من بلاد منغوليا شمال شرقي آسيا.

وفي سنة (٦١٦ هـ) استولى المغول على مدينة بخارى، وفي العام التالي استولوا على سمرقند، وأخضعوا سائر بلاد ما وراء النهر التي كانت تشكل قسماً من الدولة الخوارزمية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد توغلت قوات المغول في بلاد خراسان واستطاعت أن تسيطر على كل من بلخ ومرو ونيسابور[٢].

(١) بسام العسلي: الفاتح القائد، ص ١١ - ١٢، دار النفائس، ط١٤٠٦ هـ.
(٢) د. حامد غنيم: الجبهة الإسلامية ج٢ - ص ٢٤، طبع مصر.

كان العالم الإسلامي في ذلك الوقت - بعد موجة صلاح الدين التوحيدية - قد انقسم على نفسه، وعاد إلى سيرته الأولى حتى داخل البيت الأيوبي، فسادته صور مريرة من الصراع والإقطاعات المتنافسة التي كانت تسمى (بالإمارات) وغابت روح الإسلام الموحدة، وحلت نعرات عنصرية وعشائرية مكانها.

وفي ظل هذا الوضع استطاع المغول بعد أن قضوا على ما وراء النهر وخراسان وأذربيجان وطبرستان والري وهمذان - أن يقضوا على دولة السلاجقة في آسيا الصغرى وأرمينية، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى زحفوا على عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وأسقطوها بعد مقاومة لا تذكر، وأنهوا خلافة العباسيين في العراق سنة ٦٥٦ هـ ، وسفكوا الدماء بطريقة وحشية لم تحدث في تاريخ الحروب من قبل، وزحفوا من بغداد إلى الشام التي كانت تحت سيطرة الزعيم الأيوبي الضعيف الملك الناصر، فاستولوا على حلب وحماة ودمشق بسهولة ويسر.

وبحكم المسيرة الطبيعية كان لا بد أن يسير التتار من الشام متوجهين نحو مصر ليذيقوها الدمار الذي أذاقوه لبقية بلاد المسلمين، وقد كان أمير مصر المظفر سيف الدين قطز، قد أدرك أن التتار سيهاجمون مصر بالضرورة، وقد صدق إدراكه فلم يلبث أن جاءته رسالة من هولاكو.. نقتطف منها ما يلي: «من ملك الملوك شرقاً وغرباً الخاقان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بإنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك لِيعلم

الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند اللَّه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكا، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد[١].

والرسالة - كما نرى - تكشف عن الخراب الذي عم العالم الإسلامي وحضارته على يد المغول، وهم يتباهون به، ويعتبرون هذا الخراب رسالتهم، وأنهم خلقوا من سخط اللَّه، ليؤدب اللَّه بهم المتهالكين على الدنيا، المتقاتلين على أهداف صغيرة، المتنابذين لأتفه الأسباب.

وقد كاد خرابهم يعم لولا أن جمع اللَّه قلوب المماليك والشعب المصري على الجهاد، ووقف عالم فذ من علماء الإسلام هو العز بن عبد السلام الذي أهاب بالجميع أن يموتوا ذوداً عن دينهم، وأهاب بالمماليك أن يتنازلوا عن امتيازاتهم وبالشعب أن يندفع إلى الجهاد بالدم والمال.

وعندما طلب منه الأمراء المماليك أن يدعو طبقات الشعب إلى البذل، والعطاء في سبيل الجهاد، رفض الشيخ وقال: إن على الأمراء أن يكونوا القدوة، وأن يبدؤوا بأنفسهم في البذل والعطاء حتى يتأسى بهم الناس.. وقد حاول الأمراء المماطلة وقالوا: ليس عندنا أموال، فاطلب

---

(١) السلوك للمقريزي ج١/ق٢، ٤٢٧ - ٤٢٩ (نقلاً عن وثائق الحروب الصليبية والمغول الدكتور محمد ماهر حماده ٣٥٤) طبع بيروت.

من الناس أن يتبرعوا لنا، وللجيش. قال الشيخ: لا حتى تخرجوا ما عندكم، وما في قصوركم من الذهب والفضة، وما عند نسائكم من الحلي، وأن تخلصوا في البذل للّه وحده، ليأتيكم منه النصر.

وحرك قلوبهم فتنبه فيها الإيمان، فأخرجوا ما عندهم، ورأى الناس ذلك فتسابقوا إلى البذل والجود، وكثرت الأموال، فأعدوا العّدة، وجمعوا السلاح، وأُقيمت معسكرات التدريب في كل مكان، واهتزّت البلدة بالهتاف والتكبير، حتى لكأنَّ كلّ مصري قائد مظفر، وحتى صار كل مصري يشتهي الوصول إلى المعركة (١).

وكان النصر في موقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ) بفضل هذا التكامل بين العلماء والأمراء وبفضل شعار وا إسلاماه الذي رفعه سيف الدين قطز - رضي اللّه عن الجميع.

٥ - من نماذج التكامل بين الساسة والدعاة في المغرب وإفريقيا:

نجح المرابطون الصنهاجيون في المغرب العربي الإسلامي (٤٣٠ - ٥٤٠ هـ) في إقامة دولة المرابطين التي كانت - بحق - تجربة رائعة للتكامل بين السياسة والدعوة وكانت إحدى أعظم الدول الإسلامية في إفريقية والمغرب العربي.

وقد قامت هذه الدولة على أساس العناق التام بين الدولة والأمة على أساس من كتاب اللّه وسنة رسوله والجهاد بهدف إقامة مجتمع إسلامي ونشر الإسلام في إفريقيا. وقد وضعوا نصب أعينهم تربية

(١) علي الطنطاوي رجال من التاريخ، ص٢٠٢، طبعة مؤسسة الرسالة.

الشعب على أسس إسلامية جادة، والتقدم به للقضاء على الوثنيات في إفريقيا وحركات المرتدين وأدعياء النبوّة في قبائل غمارة وبرغواطة، وكان عبد الله بن ياسين - الأب الروحي للدولة - يلقب بمحيي السنّة وقامع البدع والضلالات.

وقد أحدث (عبد اللّه بن ياسين) هزّة في حياة العامة في هذه المنطقة، فغيّر بعض العادات، وأحيا الروح الدينية، وأقام حدود الإسلام، وعمل على نشر لواء المساواة بين الناس [١].

وكان رجال الدولة المرابطية على هذا المنهج، ومنهم يحيى بن إبراهيم، ويحيى بن عمر، وأبو بكر بن عمر اللّمتوني، ويوسف بن تاشفين، وغيرهم. وقد علّموا الناس في الأربطة الدين والعمل؛ فاعتمد رجال الرباط على أنفسهم في الحصول على كل ما يحتاجون إليه عن طريق صيد ما يحتاجون إليه من البّر والبحر. كما كانوا يعدّون طعامهم بأنفسهم، مع الاكتفاء في الطعام بأقل القليل، وبالخشن من الثياب؛ فقد كانت حياتهم البسيطة متواضعة؛ خشنة، فهم لا يبتغون غير الدار الآخرة، وآلوا على أنفسهم الإخلاص، والتوبة، والتعبّد[٢]. وقد تمخّضت جهود المرابطين عن إسلام شعوب (التكرور) بغرب إفريقيا التي كانت أول الزنوج الذين اعتنقوا الإسلام، في حركة المرابطين الأولى، في أيام الشيخ عبد اللّه بن ياسين. فعمل التكرور بدورهم على متابعة الدعوة

---

(١) د. عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، ص ٦٦ ط، دار الغرب ١٩٨٨ م. وانظر: إبراهيم الجمل: الإمام عبد اللطيف بن ياسين ص ٦١، دار الإصلاح بالدمام.

(٢) د. عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص ٧٤.

إلى هذا الدين، وأصبحوا دعاة للإسلام بين قبائل الولوف، والولبي، والماندنجو، ونشروا المدارس الإسلامية في السودان الغربي فاستوعبت هذه القبائل الإسلام، وأخذوا من حضارة المغرب، وتأثروا بالشريعة الإسلامية، واستعانوا بالدعاة من المرابطين في بلاطهم، لتعليمهم الشريعة والقراءة والكتابة، حتى إنهم قلّدوهم في ملابسهم. وفي موجة اندفاع المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين، وجهودهم في نشر الإسلام في منتصف القرن الحادي عشر(السادس الهجري) اعتنق حكام ولاية كانجابا (من الماندنجو) الإسلام وأخذوا يتوسعون، ويمدّون نفوذهم إلى الجنوب، وإلى الجنوب الشرقي، فتكونت بعد ذلك من هذه الأراضي إمبراطورية مالي.

وانتشر مسلمو غانة الذين اعتنقوا الإسلام في اتجاه ديارا، وغلم، ومسينا، واتجهوا خاصة إلى ديا، ومن ديا تحركت مجموعات من الديولا الذين حملوا الإسلام إلى الحدود الشمالية لمنطقة الغابات، وهناك أنشؤوا مراكز إسلامية مثل (بيجو) بالقرب من جنوب نهر الفولتا الأسود، ومن هنا انتشرت المدن التجارية مثل بوندونكو، والكونج [١]، وهي مدن تجارية قامت الحياة فيها على أساس الشريعة الإسلامية والرباط في سبيل اللّه.

وإذا ما عبرنا منطقة الشمال الإفريقي ودخلنا إلى إفريقيا السوداء، فسوف نجد جهوداً شعبيّة إسلاميّة ناجحة تكررت في الأمكنة والأزمنة المختلفة... وحسبنا هنا في عملية التحليل التي نقوم بها لندحض الآراء

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٦ - ١٤٧، وكل هذه القبائل في السودان الغربي (غرب إفريقيا)، وقد سيطر الماندنجو على نهر النيجر، والأماكن المطلة عليه وأقاموا كيانات سياسية.

العموميّة غير العلميّة أن نرصد بعض المحاولات البارزة التي نجح أصحابها في نشر كلمة اللّه وتطبيق الشريعة الإسلامية، ومقاومة الجهل والبدع والانحلال.

لقد شهدت بلاد الهوسا في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (١٥ للميلاد) تحوّلات خطيرة وحركة إصلاحيّة عظيمة، قادها بعض السلاطين كالسلطان (كانو) محمد رمفا، وسلطان (كتسينا) محمد كورو ، وسلطان (زاريا) محمد رابو، الذين اعتنوا اعتناء كبيراً بإحياء الشعائر الدينية ومحاربة الوثنية وإضفاء الثوب الإسلامي على النظم السياسية، بالإضافة إلى توسيع قاعدة التعليم وتشجيع العلماء لنشر العلم في بقاع البلاد المختلفة، ونخصّ في هذا المجال السلطان محمد رمفا الذي وضع اللبنة الأساسية للبنيَة السياسيّة والاجتماعيّة والشرعية للدولة، والذي غيّر من ملامح الدولة شبه الوثنيّة، وأدخل نظام الدواوين الإسلامية في سلطنته [١].

وقد تزامن عهد هذا السلطان مع زيارة أحد كبار العلماء المجاهدين من الشمال الإفريقي لبلاد السودان الأوسط والغربي وخاصة أغذر وكاتسينا، وكانو، وستفي.. وذلك الشيخ هو محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي.

وتذكر بعض المصادر أن المغيلي أنشأ مدرسة إسلامية في كاتسينا، وجلس يعلّم الناس شؤون دينهم.. وأثمرت مجهودات محمد بن

(١) أحمد محمد كاني، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا،، ٣٥، ط١، الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٧ هـ، مصر.

عبد الكريم المغيلي في تخريج عدد كبير من العلماء، وتأسيس مدارس علمية كثيرة (١).

وفي الربع الأخير من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) ظهرت حركة الشيخ (عثمان بن فودي) النيجيري (١١٦٦ هـ - ١٢٣٣ هـ) (١٧٥٢ - ١٨١٧ م)، وكانت تقوم على نشر الإسلام وتطهيره من البدع والخرافات التي لحقت به.

وكان الشيخ (عثمان بن فودي) في بداية دعوته يحدث الناس في خمسة أمور رئيسة: أولها: ما فرضته الشريعة من الأصول والفروع الظاهرة والباطنة. وثانيها: ما يتعلق باتباع السنة وترك ما دونها من البدع والمنكرات. وثالثها: في ردّ الأوهام والآراء الخاطئة في أذهان الطّلبة مما تلقوه من علم الكلام وتكفيرهم عامة الناس بلا مبرر شرعي. ورابعها: يدور حول إخماد البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في دين الإسلام ورد العوائد المخالفة للشرع.

ويختص الأمر الخامس: بتعليم العلوم الشرعية وتبسيط مشكلاتها وتقريبها من فهم العوام.

وعندما تكاثر أتباعه، وهاجر إليه الناس من أقاصي البلاد مستمعين لوعظه ومقتدين بسلوكه، حسده علماء زمانه، وأظهروا له العداوة والبغضاء ووشوا به لدى الحكّام لتعطيل مسار دعوته.. وبالرغم من ذلك فلم يكترث الشيخ عثمان فودي بكيدهم، ومضى يحاربهم باللسان والقلم داحضاً افتراءاتهم ومبلغاً رسالته بصدق وإخلاص أذهل الناس جميعهم.

---

(١) المكان السابق.

ولقد استطاع الشيخ عثمان بن فودي بعد فترة وجيزة من قيام دعوته تكوين جماعة تسمى بـ (الجماعة)، وكان قوامها تلاميذ الشيخ نفسه، الذين تلقوا العلم على يديه، والذين صقلهم فكرياً، وهيّأهم ذهنيّاً وعلمياً للقيام بمسؤولياتهم في التربية والدعوة إلى دين اللّه [١].

وفي سبتمبر ١٧٨٨ م استدعى سلطان غوبر باو علماء بلاده وكان من بينهم الشيخ عثمان بن فودي للاجتماع به في مناسبة عيد الأضحى، ولما اجتمعوا به في مكان يسمى (مغمي) حاول سلطان غوير إرضاء الشيخ عثمان بن فودي بإعطائه خمسمائة مثقال من الذهب كمكرمة له.. لكنّ الشيخ عثمان بن فودي على غير عادة العلماء الآخرين، الذين كانوا معه، رفض تلك الهديّة، وطالب بدلاً منها بخمسة أشياء:

١ - أن يسمح له بالحريّة في التجّول للدّعوة في سبيل اللّه.

٢ - ألا يُعترض سبيل أيّ شخص يريد الاستجابة للدّعوة.

٣ - أن يوقّر كلّ عالم يلبس العمامة.

٤ - أن يطلق سراح المسجونين «السياسيين».

٥ - ألاّ تفرض ضرائب باهظة على الرعيّة [٢].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن سلطان غوبر «باو» قد قبل هذه «الشروط»، وكان هذا الموقف نقطة انطلاقة لدعوة الشيخ عثمان بن فودي، واعتبر أولّ انتصار سياسيّ، ودعويّ على حكّام بلاد الهوسا.

---

(١) أحمد محمد كاني: الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ٨٢، ٧٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٧٦.

وهكذا قدّم الشيخ عثمان بن فودي، تجربة لحركة إسلاميّة شعبيّة إصلاحيّة رائعة، كان التعاون فيها واضحاً بين بعض الساسة وعلماء الدين، وقادة الدعوة.

٦ - صور للتكامل الدعويّ السياسيّ من الهند:

كان من أبرز الظواهر المألوفة في تاريخ الإسلام في شبه القارة الهنديّة ذلك التكامل بين الدعوة والدولة، وبين رجل الحكم ورجل العلم، وتعاونهما معاً في السّلم وفي الحرب، وعندما تقع انحرافات كان الجميع يتعاونون على إصلاحها.. وذلك بطبيعة الحال - عندما ينجح الدعاة في استعمال وسائل الحكمة ويصلون إلى قلوب أولي الأمر وعقولهم، وقد كان السلطان محمود الغزنوي (الفاتح الثاني للهند) على هذا النّحو، وبعده بقرن مشى السلطان شهاب الدين الغوري في الطريق نفسه، وانتشرت في عهده المساجد في الهند انتشاراً كبيراً.

وبينما كان السلاطين الغزنويون (٥١ - ٥٨٢ هـ/٩٦٢ - ١٨٦ م) ثم الغوريون (٥٤٣ - ٦١٢ هـ) يفتحون البلاد بوسائل الفتوحات، كان الدعاة من أمثال الشيخ معين الدين الجشتي يفتحون العقول والقلوب بالحكمة والموعظة الحسنة.

وسار المماليك (٦٠٢ - ٦٨٩ هـ) (١٢٠٦ - ١٢٩٠ م)، وعلى رأسهم قطب الدين صاحب منارة قطب، ثم الخلجيون (٦٨٩ - ٧٢١ هـ) (١٢٩٠ - ١٣٢١ م) وعلى رأسهم علاء الدين الخلجي، وآل تغلق (٧٢١ - ٨١٤ هـ/١٢٩٩٠ - ١٤١١ م) واللودهيون (٨٨٣ - ٩٣٢هـ/١٤٤٨ - ١٥٢٦ م)،

في الطريق نفسه؛ أي طريق المزج بين الدعوة والدولة، وتبجيل الدولة لدعاة الإسلام تبجيلاً كبيراً.

ولقد روي أن السلطان المملوكي شمس الدين الألتمش كان يستأذن في الدخول على الشيخ بختيار الكعكي، ثم يسلم عليه بعد دخوله، وكأن شمس الدين هو الملك.

وقد روي أن المسجد الذي كان يقيم فيه الزاهد نظام الدين البدايوني كان عامراً بالزّوار والقصّاد أكثر من قصر الملك!! (١).

ومن الحكام المجاهدين الذين اعتمدوا على الدعاة والعلماء، وتكاملوا معهم تكاملاً رائعاً الملك مظفر بن محمود الذي، ولد يوم الخميس ٢٠ شوال سنة ٨٧٥ هـ في الكجرات، ونشأ نشأة عالم عابد، في أسرة أكثر ملوكها صالحون متعبّدون، وقرأ ما كان معروفاً من كتب العلم، فبرع في الحديث، وقد ولي مظفر الملك في رمضان سنة ١٩١٧ هـ، وهو في الثانية بعد الأربعين، وحكم إلى أن توفي في جمادى الأولى ٩٣٢ هـ، فكانت مدّة سلطانه خمس عشرة سنة، مرّت على الناس ممّا رأوا فيها من عدله وسخائه، وحزمه وتقواه، كأنها خمسة عشر يوماً.

وكان يتبع السنة، ويعمل بما حفظ من الأحاديث الصحيحة، في كل صغيرة وكبيرة، من أمور نفسه وأهله وأمور الرعيّة، ويدني العلماء ويصحبهم، ويكرمهم، ويجتمع إليهم، ولم يكن يحسن الظّنّ بمشايخ الطرق، ثم مال إليهم بعض الميل في أواخر أيامه، وكان يخاف اللّه،

(١) د. عبد الحليم عويس: صفحات من جهود المسلمين في الحضارة الهندية، ص٥٥ - ٥٦.

ويخشى أن يكون قد جانب الشرع، وكان كثير الإنفاق في الخير، فسأل العلاّمة (خرم خان) وكانت له ثقة به، وقال له: لقد نظرت فيما أنفقه فإذا أنا بين إفراط في صرف هذا المال، وهو مال المسلمين، وتفريط في منعه، فإذا سألني ربي عن ذلك فبماذا أجيب؟

ومن المآثر التي نسبت إلى آل طغلق جهود الملك الصالح المصلح فيروز، كما أنه ظهر في أحمد أباد ملوك ذكروا الناس بالخلفاء الراشدين كمظفر الدين الحليم الكجراتي.

ويروى أن علاء الدين الخلجي؛ أكبر ملوك الهند في زمانه، استأذن الشيخ الدهلوي في أن يزوره فلم يأذن الشيخ، مما يدل على المكانة الرفيعة للعلماء، ويدل على تدّين الحكام وتواضعهم أيضاً.

ولما مرض شيخ الدولة آبادي المفسّر وأشرف على الموت عاده السلطان إبراهيم الشرقي، ودعا عند رأسه أن يكون هو (أي السلطان) فداءه من الموت.

ويعدّ المصلح المجدّد الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (٩٧١ - ١٠٣٤ هـ) مثلاً رائعاً في إصلاح الحكام وذوي النفوذ، وبجهوده الدعويّة الحكيمة نجح في القضاء على آثار فتنة الإمبراطور أكبر الذي كان يميل إلى الهنادكة.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الندويّ - رحمه اللّه - يبدي إعجابه الشديد بالمنهج الدعوي الحكيم للشيخ السرهندي، ويقول بوضوح:

«أنا تلميذ صغير لتاريخ الإصلاح والتجديد، وإن هواياتي وإن كانت

متعدّدة ولكن تأتي في مقدمتها هوايتي في التاريخ، وخاصّة تاريخ الإصلاح والتجديد، فما رأيت تجربة في القرون الأخيرة - أعني بعد القرن الثامن على الأقل - أنجح وأكثر توفيقاً من تجربة الإصلاح والتجديد التي قام بها الشيخ أحمد السرهندي في القارة الهندية» (١)

ويتساءل الشيخ الندوي قائلاً:

«كيف استطاع هذا الرجل الأعزل المجرد من كلّ سلاح، والمجرد من كل ثروة ماديّة، والمجرّد من كل جيش، أن يحول التيار الإلحادي في الإمبراطورية المغوليّة الكبرى في الشرق، وفي البلاد العربية والتركية، وذلك بتأثير الخلل الذي أحدثه الملك القوي القاهر الذي اتسعت له الفتوحات الواسعة، وهو جلال الدين أكبر، وكان هذا الإمبراطور قد نشأ في قلبه عداء للإسلام وحقد عليه، ومن الأمثلة على ذلك أنه ما كان يستطيع أحد في بلاطه أن يسمّي ابنه محمداً، لأنه كان يكره هذا الاسم (لعنه اللّه) وهنالك قيض الله - تعالى - لمكافحة هذا التيار، ومقاومة هذه الفتنة العظيمة الشيخ أحمد السرهندي فجلس في ركن من أركان بيته وبدأ يفكر في شق الطريق لمكافحة هذا التيار فجعل يراسل الملك وأهل البلاط من الوزراء الكبار، والأمراء العظام، ويثير فيهم النخوه الإسلامية والحميّة الدينيّة، وبقى هكذا مدة طويلة يراسل ويكتب ويقابل حتى كسب عدداً كبيراً من الأمراء؛ فكانوا أنصاره وتلاميذه، ومات (جلال الدين أكبر) وخلفه ابنه نور الدين جهانكيز، وقد

(١) انظر الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي: حكمة الدعوة وصفة الدعاة، نشر المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء.

عرف (جهانكيز) أن الشيخ السرهنديّ من طراز آخر، وأنه عالم رباني مخلص، زاهد في الدنيا، محب للغير، فأحبه وأجلّه، وبدأ يهتم برفع شعائر الإسلام وبناء المساجد في المناطق والقلاع التي كان يفتحها، واحترام الإسلام والمسلمين.

لم يزل يجري اتصالاته بالأمراء المسلمين وكبار الوزراء حتى كوّن مجموعة مؤمنة ذات حمية دينيّة فقلب التيّار، وغيّر مجرى التاريخ، فكان جهانكيز أفضل من أبيه أكبر، وكان ابنه (شاهجهان) أفضل من أبيه جهانكيز، إلا أنّه أنفق ثروة الهند في بناء القلاع والمعمار والفنون.

ويلّخص الشيخ أسباب نجاح السرهندي فيقول:

هناك عاملان أساسيّان في نجاح رجل الدعوة: أحدهما: تملّك الفكرة وسيطرتها على نفسه، والثاني: التجّرد عن المطامع الدنيويّة والزهد في المناصب والملك [١].

وقد أكرم اللّه الهند الإسلامية عندما اعتلى عرش السلطنة (أورنكزيب عالمكير) (١٠٦٨ - ١١١٩ هـ / ١٦٥٨ - ١٧٠٧ م)، بعد أن عمّ الخراب البلاد الإسلامية؛ فأبطل البدع، وحاسب من شرب الخمر ولعب الميسر، وبعث بالمحتسبين لمراقبة تعاملات الناس، وعمّر المساجد المخرّبة، وأمدّها بالخطباء والوعاظ، وكان أفضل بذرة أثمرتها جهود الشيخ السرهندي - رحمه اللّه - كما أوقف أورنكزيب حياته على نشر الإسلام ورفع ألويته، وقضى أيامه على خير ما يقضيها مسلم تقي

(١) المرجع السابق.

عابد؛ فكان ينزل عن دابته فيصلّي بخشوع وخضوع، وأبعد عن بلاطه الموسيقّيين والمطربين، هذا فضلاً عن تجمّله بالصبر والتواضع.

وقد نجح أورنكزيب في القضاء على حركات الانشقاق بدرجة كبيرة، والقضاء على الزندقة التي كانت أثراً من آثار جدّه المنحرف عن الإسلام الامبراطور جلال الدين أكبر، كما أبطل ثمانين نوعاً من الضرائب، وبنى المساجد في أقطار الهند، وأقام لها الدعاة والمعلمين، وأدنى الفقهاء والعلماء من مجلسه، وبنى لهم المدارس، وأعطاهم الأعطيات شريطة أن يعملوا، وقام بتدوين الأحكام الشرعية وتقنينها فيما يسمى (بالفتاوى العلمكيرية) وهي الأم لمجلة الأحكام العدلية (العثمانية).

وهكذا امتزج الحكم بالفقه والعلم، وتعاون أولو الأمر وأولو الرأي، وقادة علوم الدين، وقادة سياسة الدنيا.. وبهذا التكامل الذي ظهر بوضوح في التاريخ الهندي الإسلامي تقدّم الإسلام، فدخل الناس في دين اللّه أفواجاً، وقدمت الهند الإسلامية صفحات رائعة من صفحات الحضارة الإسلامية.

وكما يذكر سماحة الشيخ أبو الحسن الندويّ (رحمه اللّه) فإن من يقرأ سيرة (أورنكزيب عالمكير) يجد فيها نواحي علميّة وعمليّة جمّة، ويجدها حافلة بجلائل الأعمال طيلة خمسين سنة لم تتوقف جهوده فيها يوماً واحداً، كما لم تتوقف فتوحاته العظيمة وإصلاحاته الكبيرة، فضلاً عن تقشّفه وصلابته واستقامته ودقّته في تعظيم أوقاته والمحافظة على الفرائض والسنن واشتغاله بالعبادات والعلم، مع إشرافه الدقيق على مملكته التي لا تدانيها في سعتها مملكة أخرى في عصره... لقد كان أورنكزيب - بحقّ - معدوم النظير في علوّ الهمة وقوّة الإرادة بين ملوك العالم!! [1].

(١) د. عبد الحليم عويس: صفحات من جهود المسلمين في الحضارة الهندية، ٥٢ - ٥٦.

٧ - دور الزهّاد الصالحين في مؤازرة السلطة ومقاومة الفساد

كانت للمجاهد الزاهد (سهل التستريّ) جهود ضخمة ضد جماعات المبتدعة المارقين أدعياء الصلاح والزهد الذين يطلبون الدنيا - مع التظاهر بالزهد - من أخسّ الطرق، وأسوأ السبل، وقد أصدر كتاباً عنوانه: «المعارضة والردّ على أهل البدع وأهل الدعاوى في الأحوال» (١).

وقد وقف كثير من الزهاد في مواجهة موجات الفساد والمنكر والنفاق والتصوّف المنحرف والبدعيّ. وللتستري في كتاب (التراث الصوفي) كلام طيّب في هذه المجالات، ومنه قوله: «واعلموا يقيناً أنكم لن تجدوا في زمانكم من عمل بعلمه إلا ما شاء اللّه، وكلّ من كان أكثر علماً كان أسوأ حالاً قيل: وكيف ذلك؟ ولم صار هكذا؟ قال: «لأنهم صيروا علمهم مأكلة لحم، أو طلب رياسة، أو متاع الدنيا، أو رياء وسمعة، وتركوا الأمر الأول، وآثروا الدنيا على الآخرة» (٢).

ويقول التستريّ أيضاً : «سيكون في آخر الزمان العلماء ثلاثة أصناف: صنف منهم عرف المنكر فأنكره بقلبه، وقوم منهم عرفوا المنكر فيهم فخالطوهم عليه، وقوم عرفوا المنكر فأنكروه بالعلم جهدهم، وهؤلاء أعز من الكبريت الأحمر(٣).

وقد كان الإمام الحسن البصري (رضي الله عنه) إماماً في باب تغيير المنكر

---

(١) نشره الدكتور محمد كمال جعفر بالقاهرة، سنة ١٩٨١ م.
(٢) سهل التستري: التراث الصوفي ٢/٩٣، القاهرة، ١٩٨٦ م. بتحقيق محمد كمال جعفر.
(٣) من التراث الصوفي ٢/١٣٥.

بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد كان يفضل سياسة تغيير المنكر بأقل قدر ممكن من الخسائر؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، فلهذا كان يقول للناس:

«إن الحاكم الظالم إما أن يكون عقوبة من اللَّه، والعقوبة لا ترد بالثورة عليها، وإما أن يكون بلاء يستأهل الصبر حتى يحكم اللَّه».

وحين سنحت للحسن البصري الفرصة ليعظ الوالي ابن هبيرة نصحه بأحكم قول وأشجعه على خلاف مداراة صاحبيه في نصيحة ابن هبيرة وهما: ابن سيرين والشعبي. ومن الطريف أن ابن هبيرة أعطى الحسن أعطية أكثر من زميليه مع أنهما قالا له قولاً ليناً، فقال زميلاه تعليقاً على ذلك: سفسفنا له فسفسف لنا[١].

وعلى خطا الحسن البصري كان الفضيل بن عياض مع خلفاء بني العباس نصحاً وتوجيهاً وكان يقول: لو أن لي دعوة مستجابة ما صيرتها إلا في الإمام (يقصد أن في صلاح الإمام صلاحاً للعباد والبلاد).

وحكايات الفضيل بن عياض مع هارون الرشيد عديدة ومتنوعة، وعندما قال له هارون الرشيد: عظني، قال له الفضيل: ماذا أعظك؟ هذا كتاب اللَّه بين الدفتين: انظر ماذا عمل بمن أطاعه وماذا عمل بمن عصاه؟.. إني رأيت الناس يغوصون على النار غوصاً شديداً ويطلبونها طلباً حثيثاً... أما واللَّه لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها. فقال له هارون: عد إليَّ، قال الفضيل: لو لم تبعث إليَّ لما أتيتك وإن انتفعت بما

(١) انظر الحلية ١٤٩/٢ نقلاً عن الدكتور أبي اليزيد العجمي (الأصول الفكرية للجانب الاجتماعي في التصوف الإسلامي) رسالة دكتوراه بدار العلوم ص ٣٤٥، جامعة القاهرة.

سمعت مني عدت إليك... وقد قال له الرشيد يوما: ما أزهدك! فقال له الفضيل: أنت أزهد مني.. فقال الرشيد: وكيف ذلك؟!! قال الفضيل: لأني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة. الدنيا فانية والآخرة باقية (١).

وقد كانت (لذي النون المصري) مواقف أيام الخليفة المتوكل العباسي، كما كانت (لحاتم الأصم) مواقف أيام الرشيد أيضاً . وقد رفض (سهل التستري) أن يعالج الحاكم (ابن الصفار) حتى يرد كل مظلمة للناس عنده، ثم لما عالجه عرض عليه مالاً وثياباً فلم يقبلها(٢).

وقد كانت للإمام أبي حامد الغزالي مواقف رائعة في الثبات على الحق والجهر في وجه المنكر، دون أن يخشى في اللّه لومة لائم.. ومن ذلك نصحه لأحد ملوك خراسان، فقد قال له: يا أسفاه! إنّ رقاب المسلمين كانت تسقط بالمصائب ورقاب خيلك كانت تسقط بالأطواق الذهبية. كما كتب الغزالي إلى أمير مدينة طوس بخراسان يقول له: «اعلم أن مدينة طوس أصبحت خراباً بسبب المجاعات والظلم، وأن دعاء أهل المدينة (طوس) مجرب بالخير والشر.. فاتقِ اللّه».

وقد كانت للشيخ الجيلاني مواقف مع بعض الخلفاء. وعندما ولى الخليفة المقتفي قاضياً ظالماً قال له من فوق المنبر: «ولّيت على المسلمين أظلم الظالمين، ما جوابك عند ربّ العالمين أرحم الراحمين».. فارتعد الخليفة وبكى وعزل القاضي الظالم» (٣).

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ترجمة رقم ٥٠٤.

(٢) د. أبو اليزيد العجمي: الأصول الفكرية للجانب الاجتماعي في التصوف الإسلامي (رسالة دكتوراه) ص ٢٥١.

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٠.

وعلى الدرب نفسه من الجهاد بالكلمة والأمر بالمعروف، كان أبو الحسن الشاذلي، الذي كانت له مواقف مع السلاطين كثيرة مشهورة...

وقد كان للزهّاد الملتزمين بالكتاب والسنة في اليمن خلال القرنين السادس والسابع الهجريّين أثرهم البالغ في تغيير نظام الحكم وأسلوبه.

والمؤرخون يذكرون تلك الصداقة الوطيدة بين مؤسس الدولة الرسوليّة الملك المنصور بن عمر بن علي بن رسول (٦٢٩ - ٦٤٧) وبين الفقيه الزاهد محمد بن أبي بكر الحكم (م: ٦١٧ هـ) وصاحبه الزاهد محمد بن حسين الجليني (م: ٦٢١ هـ) ويقال إنهما اللذان قويّا عزمه في الاستيلاء على الحكم بعد مشاهدتهما تعنّت نظام الحكم السابق وفساده، وبهذا تدين الدولة الرسولية للزهّاد الصالحين في ظهورها [١].

وأياً كان الأمر، فقد اجتهد كثير من الزهّاد في تغيير الأحوال وتربية أنفسهم وذويهم، وفي الإصلاح الإجتماعيّ بالوسائل الحكيمة.. وقد وجدوا أن من بين منافذ التغيير الاجتماعي نصح الحكام وتوجيههم وهو أمر يتطلب صدقاً مع اللّه وشجاعة لا يملكها إلا الزاهد في الدنيا [٢].

وقد كان الطابع الروحي بارزاً في فكر الفيلسوف المجدد والمؤسس الفكري والروحي لدولة باكستان (محمد إقبال) صاحب فلسفة الذات المسلمة.

---

(١) المرجع السابق: ص ٣٥٥.

(٢) أبو اليزيد العجمي: الأصول الفكرية للجانب الاجتماعي في التصوف الإسلامي (رسالة دكتوراه بدار العلوم) ص ٣٥.

وقد عرف «إقبال» حقيقة الإنسان وقيمته فأراد أن يلقنه درس الإنسانيّة الحقّة بما تنطوي عليه من جانب إلهي، وقد دعا الناس إلى أن يتخلقوا بأخلاق اللّه، وأن يكتسبوا صفاته حتى يكتب لهم الخلود.. «وهنا تصبح العقبات والمشكلات في طريق الرقيّ الروحيّ للإنسان لا شيء، فلا الزمان ولا المكان ولا العلم الماديّ بأسره، ولا الشيطان نفسه بقادر على أن يثني الإنسان عن عزمه على الرقيّ الروحيّ الدائم وشوقه إلى الاتصال بالحقيقة الخالدة والوصول إلى اللّه[١].

وكما يقول أستاذنا الشيخ أبو الحسن الندوي: فقد تربى إقبال في مدرستين إحداهما تقليدية هي مدرسة الشهادات، أما المدرسة الأخرى فهي مدرسة توجد في كل مكان، وهي أقدم مدرسة على وجه الأرض، إنها مدرسة داخلية تولد مع الإنسان فيحملها الإنسان معه في كل مكان هي مدرسة القلب والوجدان، وهي مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية، وتمدها بالقوة الروحيّة [٢]، ومعلمو هذه المدرسة يتمثلون في الإيمان والحب الجارف للرسول (ﷺ) والقرآن بما له من مآثر لا توجد إلا فيه [٣].

٨ - دولة الدعوة في جزيرة العرب

كان القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر المسيحي بداية عصر الدعوة الإصلاحيّة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

---

(١) د. محمد السعيد جمال الدين: رسالة الخلود لإقبال، المقدمة. وانظر د. أبو اليزيد العجمي: مجلة المسلم المعاصر، عدد ٣٣، الكويت، دراسة عن الزهاد المسلمين.

(٢) روائع إقبال ص ٢٥، وما بعدها، ط. الكويت، ١٩٧٨ م.

(٣) المرجع السابق.

وفي هذا القرن كان العالم الإسلامي يسير على النهج نفسه الذي سار عليه في سابقه من انفصال عن الحقيقة الإسلامية، ومن سيطرة لمفاهيم مغلوطة عن العقل الإسلامي، ومن تمزق سياسي وفوضى اقتصادية وهبوط اجتماعي.. بحيث أصبح الحال - كما يسميه المفكر الجزائري مالك بن نبي - حالة (القابليّة للاستعمار) [١]، إنّها الحالة التي تتوافر فيها مواد خام بشرية تمتاز بـ (البطالة)، و (الجهل)، و(الانحطاط الخلقي) المتولّد من انحطاطين: أحدهما: فكريّ، والآخر: نفسيّ.

وقد ولد محمد بن عبد الوهاب سنة (١١١٥ هـ) بالعينية شمال غرب الرياض [٢]، وعاش حياة حافلة بالتعلّم والارتحال في طلب العلم، وقد حفظ القرآن قبل بلوغه العاشرة [٣]، وكان سباقاً في عقله وجسمه.. وقد جاهد في سبيل تكوين رؤية سلفيّة تعيد حال الأمّة الإسلاميّة إلى الصلاح، حتى تنجح في تحقيق عودتها إلى مكانها التاريخي..

وظلّ كذلك حتى وافته منيتّه سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩٢م) بعد أن شهد آثار إصلاحه في الجزيرة العربية، وبعد أن انتقل البدو - أمام عينه - من حياة الجاهليّة إلى حياة الحاضرة، واستنارت نجد والجزيرة العربية بدعوته العظيمة[٤].

وقد تلخصت الجوانب الإصلاحيّة في دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في الآتي:

---

(١) انظر شروط النهضة: فصل (عامل القابلية للاستعمار)، ص ٢٢٩، الطبعة الثالثة.
(٢) أحمد عبد الغفور العطار: محمد بن عبدالوهاب، ص ٣١. ط٢، مكتبة العرفان، بيروت.
(٣) أحمد بن حجر أبو طامي: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مطبعة الحكومة بمكة، ١٣٩٥ هـ.
(٤) أحمد عبد الغفور العطار: محمد بن عبد الوهاب، ص ١٠١.

١ - تصحيح عقيدة المسلم وتطهيرها من مظاهر الشرك التي علقت بها، وذلك بالعودة إلى عقيدة التوحيد كما ورد في الكتاب والسنّة الصحيحة.

٢ - رفض الخرافات التي أُقحمت على الإسلام، في مجالات التوسّل والاستغاثة ومقاومة الخرافات والبدع.

٣ - فتح باب الاجتهاد - عند توافر وسائله - وعدم التعصّب لمذهب معيّن، وضرورة أن يعود المسلمون إلى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة.

٤ - ضرورة إحياء فريضة (الحسبة) أي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء فريضة الجهاد التي خمدت في نفوس المسلمين.

٥ - العمل على إقامة دولة تتبنى الدعوة؛ لأنه بالدولة والدعوة معاً تبنى حضارة الإسلام... وبالتمزّق أو الانفصام بين الساسة والدعاة يقع السقوط والتشرذم.

وقد كللت جهود الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالنجاح التام عندما تحالف معه الإمام محمد بن سعود الكبير، ومن ثم تعاهدا على إقامة (دولة الدعوة) التي قامت في الدرعيّة على مقربة من الرياض وامتدت إلى أنحاء الجزيرة وأثّرت في كثير من الإصلاحيّين والمجدّدين في العالم الإسلامي.

وقد مرت (دولة الدعوة) في الجزيرة بأطوار مثّلتها الدولة السعودية الأولى، والدولة السعودية الثانية.. والدولة السعودية الثالثة التي كانت بقيادة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (رحمه اللّه)،

وما زال أبناؤه الكرام المخلصون يحملون راية الدولة والدعوة؛ مروراً بالملك فيصل، وحتى الملك عبدالله بن عبد العزيز أطال اللَّه عمره.

٩ - صورة دعويّة معاصرة من تركيا

ولد سعيد النورسي في قرية «نورس» وهي إحدى قرى قضاء «خيزان» التابع لولاية «بنيس» شرق الأناضول سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٣ م) (١).

كان والده ميرزا ورعاً يضرب به المثل في الزهد والورع؛ فلم يطعم أولاده من غير الحلال، حتى إنه إذا عاد بمواشيه من المراعي يشدّ أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين. وتقول أمه «نوريّة»: إنها ما أرضعت أطفالها إلا وهي على طهر ووضوء.

وقد تلقى علومه الأولى في كتاب القرية «طاغ» سنة (١٨٨٢ م). وفي سنة (١٨٨٨ م) ذهب إلى «بتليس» والتحق بمدرسة الشيخ «أمين أفندي» (٢).

وفي سنة (١٨٩٢ م) ذهب سعيد النورسي إلى ماردين، حيث بدأ يلقي دروسه في جامع المدينة، ويجيب عن أسئلة قاصديه، وقد أصبح يطلق عليه اسم (الملاّ سعيد).

وفي سنة ١٨٩٤ م، ذهب إلى «وان» بدعوة من واليها «حسن بك» حيث بقي عنده، ثم في منزل «طاهر باشا»، ولقد هيّأ اللَّه له ظروف

---

(١) اعتمدنا في هذه النبذة الوجيزة على الكتاب الرائع: بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص ١٩ (بتصرف) لصديقنا الكبير الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، ط ٣، الكلمات للنشر.

(٢) المرجع السابق، ص ٠

الالتقاء ببعض أساتذة العلوم الحديثة (من جغرافية، وكيمياء وغيرهما). وحينما دخل معهم في نقاش شعر بقصوره في هذه العلوم، مما جعله يقبل على تعلّمها بشغف عظيم حتى أتقنها وأصبح متمكناً منها، لدرجة أنه كان قادراً على التأليف ومناقشة المختصين فيها [١].

وفي هذه الفترة وأثناء إقامته في «وان» قرأ في الصحف المحلية خبراً مدهشاً هزّ كيانه كله هزاً عنيفاً، فقد نشرت الصحف ما قاله وزير المستعمرات البريطاني (غلادستون) في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم: «ما دام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم؛ لذلك فلا مناص من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به».

وقد زلزل هذا التصريح الآثم كلّ كيانه وصمّم بينه وبين نفسه على أن يكرّس كلّ حياته لإظهار إعجاز القرآن وربط المسلمين بكتاب اللّه، حيث قال: «لأبرهننّ للعالم بأنّ القرآن شمس معنويّة لا يخبو سناها ولايمكن إطفاء نورها» [٢].

وفي شتاء سنة ١٩١١ م (١٣٢٧ هـ) زار سعيد النورسي بلاد الشام، حيث كانت أخته هناك، وألقى خطبة باللّغة العربية في الجامع الأموي في دمشق مخاطباً العلماء وجمعاً غفيراً من المصلّين، وقد طبعت خطبته هذه في كراسة تحت عنوان (الخطبة الشاميّة) التي شخّص فيها أمراض الأمة الإسلاميّة وعلاجاتها، ورأى أنّها تنحصر في

(١) المرجع السابق، ص ٢٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٣.

الأمراض الستة الآتية:

١ - اليأس أو القنوط الذي ما زال يحدّ أسباب الحياة في نفوسنا.

٢ - موت الصدق في حياتنا الاجتماعيّة والسياسيّة.

٣ - حبّ العداوة والبغضاء وإيثار الخلاف.

٤ - تجاهل الرابطة الروحية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.

٥ - ذيوع الاستبداد.. مثل ذيوع الأمراض المعدية المختلفة، الاستبداد ممتد في كل حياتنا.

٦ - حصر الهمّة في المنفعة الشخصيّة، دون الالتفات إلى النفع العام [١].

وعندما دعي ليقابل حكومة كمال أتاتورك وأعضاء البرلمان في أنقرة لبّى الدعوة وذهب إلى أنقرة سنة ١٩٢٢ م، قبيل عيد الأضحى، حيث استقبل في المحطّة استقبالاً حافلاً، إلا أنّه لم يسعد في أنقرة كثيراً، إذ لاحظ بأسف بالغ أنّ معظم النواب لا يؤدّون الصلاة، كما أن تصرّفات مصطفى كمال أتاتورك وسلوكه المعادي للإسلام أحزنه كثيراً، لذلك فقد قرّر أن يطبع بياناً في ١٩٢٣/١/١٩م يتضمن عشر مواد موجهاً إلى النواب يعظهم ويذكرهم بالإسلام، مستهّلاً بـ (يا أيها المبعوثون: .. إنكم لمبعوثون ليوم عظيم) وكان من نتيجة هذا البيان الذي وزّع بين النواب، وتولّى إلقاءه الجنرال (كاظم كره بكر) (القائد الأول لحركة

(١) المرجع السابق، ص ٣٦.

الاستقلال) أنّ ما يقارب ستين نائباً من النواب قد استقاموا على التديّن وأقاموا الصلاة، حتى أن مسجد بناية المجلس لم يعد كافياً للمصلّين، فانتقلوا إلى غرفة أكبر منه.

ولم يرض مصطفى كمال عن هذا البيان؛ فاستدعى بديع الزمان وحدثت مشادة عنيفة، وكان مما قاله مصطفى كمال:

«لا ريب أننا بحاجة إلى أستاذ قدير مثلك، لقد دعوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك المهمة، ولكن أول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة، لقد كان أول جهودكم هنا هو بث الفرقة بين أهل هذا المجلس»!!.

فأجابه بديع الزمان مشيراً إليه بإصبعه في حدّة:

«باشا.. باشا.. إنّ أعظم حقيقة بعد الإيمان باللّه هي الصلاة، وإنّ الذي لا يصلّي خائن، وحكم الخائن مردود» (١).

وعندما ظهرت للعيان المؤامرة على الإسلام - دينا وحضارة وخلافة - وظهرت هيمنة العلمانيّة والصهيونيّة على تركيا - بجلاء - لم يبدّد سعيد النورسي وقته في البكاء ولعن الظلام، بل برمج حياته على أساس مقاومة الإلحاد العلماني الماسوني الذي جاء يقتلع بذور الإيمان مسلّحاً بالمكر والتآمر والانحلال الأخلاقي، وتوجيه الفن والثقافة لخدمة الإلحاد والمادية والحياة الفوضوية.

ولأكثر من خمسة عقود وحتى الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٢٣ من مارس سنة ١٩٦٠ حين وافته المنيّة، عاش سعيد

(١) المرجع السابق، ص ٥٢، ٥٣.

النورسي يجاهد بقلمه وجهوده التربويّة والدعويّة، وأمامه هدف واحد انصرف إليه بكّليته بعد تجارب متعددة، وهو أن يبذر بذور الإيمان الصحيح عن طريق التربية القرآنيّة والنبويّة، واقتلاع بذور الإلحاد التي سعى العلمانيون والماسونيّون إلى غرسها في الأرض التركيّة والعالم الإسلامي، وكانت موسوعته (رسائل النور) خلاصة مشروعه العملاق لبعث الأمة الإسلاميّة بعثاً إسلاميّاً وعصرياً.

وكما رأينا، فإنه في سبيل إنقاذ الإيمان اشتغل سعيد النورسي بالسياسة وتعاون مع الذين يمكن التعاون معهم من السياسيّين ورجال الخلافة العثمانيّة، وقدم للسلطان اقتراحاً بشأن جامعة إسلاميّة عالميّة في آسيا تضاهي الأزهر في أفريقيا.

لكنّ النورسي عندما وجد أن الإصلاح عن طريق سياسة عاجزة وساسة لا يرون قيام النهضة على أساس الإسلام والهويّة الحضاريّة القرآنيّة المستقلة؛ أقلع عن الاشتغال بالسياسة وابتعد عن كل صور الصدام بالساسة؛ ومن ثم تفرّغ لبناء الأمة من موقع الفقه العصريّ للقرآن.. فقهاً ينتهي ببناء الفرد العصريّ المؤمن، ومن ثم بناء المجتمع المسلم والحضارة الإسلاميّة القادرة على دحر الإلحاد - بلغة العقل والعلم والدين معاً - وبناء إنسانيّة مؤمنة معاصرة [١].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣.

١٠ - حرب التحرير الجزائرية صورة حيّة للتكامل الجهاديّ السياسيّ والدعويّ

ولد الإمام عبد الحميد بن باديس (الشيخ الرئيس) سنة (١٨٨٩ م) في مدينة قسنطينة - أكبر مدن الشرق الجزائري - وأبدع مدن الجزائر على الإطلاق من حيث الموقع الطبيعي، وأشهرها من حيث احتضانها القديم للثقافة الإسلامية، وإنجابها لكثير من قادة الفكر الإسلاميّ في الجزائر، وكذلك كثرة الآثار الإسلاميّة بها.

وفي قسنطينة هذه نشأ الشيخ ابن باديس، وترعرع وتلقى علومه، ثم تخرج من الزيتونة عام ١٩١٢ م، ولم يلبث أن قام بالحج إلى بيت اللّه الحرام - شأنه شأن الأمير عبد القادر الجزائري - حيث استغلّ هذه الرحلة الدينيّة فطاف بالمشرق والمغرب، وأتيح له أن يعرف من أمراض المسلمين الشيء الكثير، فعاد إلى الجزائر عازماً على الإصلاح وفق منهج إسلاميّ تكوّنت أبعاده في ذهنه من مجموعة من المؤثّرات المهمّة، صدر بعضها عن الواقع، وصدر بعضها عن الثقافة التي تشبّع بها الشيخ.

وقد عاش الشيخ ابن باديس ظروف محنة الاحتلال الفرنسيّ للجزائر الذي عمد إلى محاولة إزالة الإسلام وإخراجه من الجزائر إلى الأبد.. ولهذا كانت حركات المقاومة الجزائرية في عمومها حركات إسلامّة..

وإذا ما استثنينا الطابع الإسلامي لحركة الأمير عبد القادر الجزائري، فإننا نجد هذا الطابع الإسلامي موجوداً في حركة (نجم شمال إفريقيا).. التي ظهرت ١٩٢٥م، ولهذا لم تلبث هذه الحركة أن

تطوّرت وأعطت نفسها اسمها الصريح منذ سنة ١٩٣٦م، وأصبحت تدعى «الاتحاد الوطني للمسلمين المغاربة».

وفي هذا السّياق الإسلاميّ الجهاديّ الذي يقود معركة إنقاذ الجزائر من براثن فرنسا العاتية ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٩٣٠م؛ معطية كل الأهداف الجزائرية المبعثرة صيغتها التقنّية الواضحة التي تمثّلت في:

- مقاومة الإدماج والتجنيس وإبراز الشخصيّة الجزائريّة.
- فصل الدين الإسلاميّ بكل أجهزته عن سلطة الدولة الفرنسيّة الحاكمة.
- إتاحة الفرصة للتعليّم العربيّ والثقافة العربيّة.
- تربية الشباب الجزائريّ تربية إسلاميّة.
- العمل على توحيد كلمة المسلمين والقضاء على أسباب انحطاطهم.
- إنشاء المدارس العربيّة والإسلاميّة.
- إنشاء المساجد والنوادي الثقافيّة.
- إرسال البعثات العلميّة إلى بلاد الإسلام المتقدمة.
- تأسيس الكشّافة الإسلاميّة.
- تأسيس جمعية التجار المسلمين.
- تأسيس جمعيّة الفنون الجميلة والموسيقى العربية.
- إنشاء صحافة عربيّة وإسلاميّة!!

وقد فسّر الشيخ ابن باديس القرآن الكريم كلّه تفسيراً يوقظ به الشعب الجزائريّ، ولم يكن عجباً أن يحتفل الشعب بيوم ختام هذا التفسير وكأنه يحتفل بعيد استقلال روحي وحضاري.. والتقت إرادة الساسة والمجاهدين والدعاة والعلماء بقيادة جمعيّة العلماء التي رفعت أمام الجميع شعارها الذي دوّى في أنحاء الجزائر:

- شعب الجزائر مسلم... وإلى العروبة ينتسب

وبعد جهاد طويل، ومعركة مباشرة قامت بين الشعب الجزائريّ والاستعمار الفرنسيّ خرجت فرنسا من الجزائر سنة ١٩٦٢ م، بعد احتلال دام مائة وثلاثين سنة.

❖❖❖

وأخيراً..

فهذه دروس منتقاة من تاريخنا الإسلامي، ولا شكّ أن ثمة دروساً كثيرة تزخر بها صفحات هذا التاريخ الخصب، وفي مقابل ذلك دروس على الشاطئ الآخر تؤكد لنا أن الهزائم والنكبات كانت مرتبطة بالتمزّق والتنازع بين الأمراء والعلماء وبين بقيّة أجزاء الجبهة الإسلامية.

ولهذا ارتبطت ظاهرة المدّ والجزر في تاريخنا - إيجاباً وسلباً - بمستوى هذه العلاقة، فالأمراء والعلماء، يمثلون عقل الأمة وقلبها، وبدون عقل وقلب لا يمكن أن يتحرك الجسد الإسلامي.

- وفي عصرنا الحديث يجب أن نضع هذه الحقيقة أمام كل الأمراء والعلماء، فلعلهم في هذه المحنة الإسلامية التي نعيشها - يعبرون مأزق

التمزق والتنازع، ويلتقون على ثوابت الأمة المستقاة من دينها وحضارتها ورسائلها الربّانية الإنسانيّة، ويعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه، وذلك في نطاق ما يتسع له الاجتهاد الفقهيّ، والنظام الإداريّ الإسلاميّ.

ثانياً:

ماذا يقدم المسلمون للحضارة المعاصرة

أ - الأخلاق الصحيحة.

ب - الحضارة الحقة.

جـ - الإنسانيّة اللائقة الشاملة.

الإسلام ومنظومته الأخلاقية في مواجهة الماسونيّة واللاّدينيّة:

إنّ كلّ المحاولات التي يبذلها دعاة الحريّة الفوضويّة ودعاة اللادينّية واللاأخلاقيّة محاولات محكوم عليها بالفشل، وحسب هذه المحاولات أن تبلبل أفكار الأمة، وأن تجعلها تتآكل داخليّاً وأن تفقد بالتالي عقوداً أو قروناً من مسيرتها الحضاريّة، فلا يمكن أن يستقيم هذا العالم الإنساني دون قيم وأخلاق وروابط تحتفظ للإنسان بإنسانيّته «في أحسن تقويم» كما أراد اللّه له، وتحول دون سقوطه «إلى أسفل سافلين» كما يريد أعداء اللّه له من شياطين الإنس والجن، مثقّفين كانوا أم إعلاميّين أم مفكريّن أم سياسيّين!!.

وعبر كلّ الدراسات المحترمة التي تكلّمت في قضايا تفسير التاريخ نجد أن وجود (نظام) قيمي أخلاقيّ وقانونيّ يمثل شرطاً أساسيّاً لبقاء النوع الإنساني، ومن دون هذا (النظام) تنهار الحضارات ويسقط الإنسان إلى مستوى من الانحطاط لا يستطيع الحيوان أن يصل إليه.... وليس الدين في الحقيقة إلا الضامن الحقيقيّ لوجود نظام أخلاقيّ يحكم الحياة والإنسان ظاهريّاً وباطنيّاً، ويقيم علاقته باللّه وبأخيه الإنسان على أسس إنسانيّة كريمة، ومن هنا كان القول المأثور عن رسول الله (ﷺ) «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [1]..

- يقول هنري برجسون: «لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة».

---

(١) رواه مالك في الموطأ، وورد في الحاكم ومسند أحمد والبيهقي (دون إنما) كما ورد بلفظ صالح الأخلاق.

- ويقول (شاشاوان): «مهما يكن تقدّمنا العجيب في العصر الحاضر علميّاً وصناعيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً، فإن عقلنا في أوقات السكون والهدوء يعود إلى التأمل في المسائل الأزلية»... أي إنه لا بدّ من مبادئ، وأسس وثوابت أزليّة وإنسانيّة وقيم أخلاقيّة لكي تقوم الحياة الإنسانيّة ولكي تستقر وتتطور.. ومهما تكن أمام أعيننا من ظواهر حضارية تبدو أنّها مزدهرة بلا أخلاق ولا قيم ولا ثوابت، فيجب ألاّ تخدعنا هذه الظواهر، فالخلل يبدأ من الجذور، كما تستقر الجراثيم في الجسد عشرات السنين دون أن يشعر صاحبها بها، لكنّها تعمل في كل ساعة على هدمه وقد سقطت الحضارة الرومانية في عدد من القرون - حسب دراسة جسيبون - بينما كانت تشعر بالزهوّ والخيلاء والكبرياء القوميّ، ولم تترك أثراً حضارياً يحمد لها، بل إنّها قامت بتشويه الدين ومزجه بالوثنية عندما اضطرت إلى قبوله، كما إن هذه الحضارة عمقت مفهومين خطيرين يؤثران سلباً في حياتنا المعاصرة، وهما مفهوم (الاستعلاء العنصريّ)، ومفهوم (سيطرة القّوة على الحق) لمجرد أنّها الأقوى، وكما يقول - المجاهد الكبير (علي عزت بيجوفيتش): إنّ الشعوب تدخل التاريخ عندما تكون غنيّة الأخلاق، حتى وإن كانت فقيرة ماديّاً، وعندما تخرج منه فإن الوضع يكون عادة معكوساً، ويتبع ذلك استنتاج أنّ الحضارة بمعنى المعرفة الماديّة وحسب ممكنة، ولكنّ الأخلاق ليست نتيجة وإنما هي مقدّمة تاريخيّة، وهي تلتقي بالإنسان عندما يملك الوعي الدينيّ الخالص، أما عندما يبتعد الوحي، -

وبالتالي ينحدر التطور التاريخي - فإن الدين ينسحب أو ينحرف وتسقط الأخلاق، ويظهر على المسرح الانهيار الأخلاقي"[١].

وفي يقيني أنّ أولّ بل وأعظم ما يعطيه المسلمون للحضارة الحديثة هو «الدين بمنظومته العقدية والأخلاقية والتشريعية»، ولا سيّما بعد أن انهزمت القوى الداعية إلى الدين في الحضارة الحديثة، وأصبح الدين منقاداً لا قائداً، وعليه أن يقبل ضغوط الواقع، حتى ولو كان هذا الواقع هبوطاً بالإنسان إلى أسفل سافلين ممثلاً في زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة ليس كسلوك شاذ، بل كسلوك مُعلن يدّق باب بعض دور العبادة بقوة، وبضغط رهيب، ويعلن عن نفسه صراحة في ظل حماية قانونية!! ولعل هذا الانهزام الأخير الذي وصل إلى هذا المستوى جاء نتيجة تلك الأفكار التي أرادت زحزحة الدين بنظمه الأخلاقيّة والشرعية، ودعت إلى نسبيَّة القيم وتاريخيّتها، كما دعت إلى نزع القداسة عن قضايا الجنس وتركها تتحرك في المجتمع دون سيطرة قيميّة أو دينيّة، وذلك مثلما يدعو (الدكتور صلاح فضل) في ورقته المقدّمة إلى مؤتمر الثقافة العربية في القاهرة [٢] - إلى تلك الإباحيّة الجنسية الفاضحة والشذوذية قائلاً: (إن أولى علامات التقدم الاجتماعي / وهي أولى علامات الانحطاط الحيوانيّ في رأينا!! - عند من يعرفون ألف باء الحضارة/ - تظهر عندما يتجاوز المجتمع المفهومات والعلاقات الناجمة عن إضفاء طابع الخطورة والأهمية على قضايا الجنس، ويقيم محلها مفهومات

(١) هروبي إلى الحرية: دار الفكر العربي ط/١/٢٠٠٢ ميلادية نقلاً عن مصطفى الأزهري المنار الجديد عدد ٢٣ - القاهرة.

(٢) ١ - ٣ يوليو ٢٠٠٣ المجلس الأعلى للثقافة - مصر (وهو مؤتمر تغريبي يسعى إلى علمنة الدين وتنحيته اسنجاماً مع الأفكار الماسونية والصهيونية الشائعة!!.

وعلاقات جديدة ترتكز على العقلانيّة وتحقيق المصالح الاجتماعيّة الكبرى في المجتمع والإنتاج والرفاهيّة.

لأنّ بدائية المجتمع البطركي تتجسد في بدايته الجنسية، ولكي يتحرر هذا المجتمع لابد أن تكون المرأة حرّة تعتزّ بكرامتها الإنسانيّة واستقلالها عن الوصاية!!.

وحينئذ لا تشغل مسألة الجنس اهتمام الرقابة الاجتماعية ولا تصبح المتعة بأولوية قصوى في سلم الاهتمامات، ويتم تقبل الحلول التي اهتدت إليها المجتمعات المتطوّرة في سيرتها الحضارية عبر التاريخ، بما يحافظ على تحرر المرأة من بيع الجسد وامتلاك مصيرها المستقلّ) [١].. أي بدل بيع جسدها فمن حقّها أن تمنحه هبة مجانية للناس حصولاً على المتعة وتحقيقاً لامتلاك مصيرها المستقلّ، إنها الشيوعيّة الجنسية التي كنا نظن أن الوعي البشري قد تجاوزها... لكنها عادت بقوة بعد سيادة الفكر الماسونيّ والصهيونيّ على العالم... ذلك الفكر الذي تألّق في مؤتمري (القاهرة وبكين) للسكان والتنمية - اللذين قصد منهما إباحة العلاقات الجنسية الشاذة، وإباحة الدعارة باسم الحريّة الجنسيّة للمراهقين، وذلك بطريقة قانونيّة وتربويّة تحميها الدول والمواثيق الدوليّة، وهذا يعني أن (الدين والأخلاق) في خطر عظيم وأنّ (الماسونية والصهيونية) قد نجحتا داخل الحضارة الأوروبية ومجالات تأثيرها نجاحاً كبيراً، بحيث يبدو أن أي محاولة لرسم صورة للتركيب الحضاري الأوروبي لابدّ أن تقنعنا بجلاء بأن

(١) صلاح فضل - المرجع السابق.

الروح الأخلاقية التي أطلت على عصر النهضة، قد آلت إلى روح لا أخلاقية تكتنف كل مظاهر الحياة، وحتى العقل الذي عبد في مطلع هذه النهضة، طفت عليه مذاهب لا معقولية تهيمن على عوالم الفن والأدب والسلوك الاجتماعي!!

واستغل الماسونيون الشعارات الثورية: الحرية، والإخاء، والمساواة، فأصبحت بذاتها - بعد أن جعلوها مذاهب - وسائل هدم تهدد حياة ومستقبل الإنسان بالخطر، فقد استغل هؤلاء أيضاً التطور الفني والتقني، وأقنعوا الفكر الأوروبي بأن هذا التطور في علوم الطبيعة كاف بذاته لإعطاء تفسير يغني عن تفسير أصل الأشياء باللّه، وكاف في الدلالة على إمكانية الاستغناء عن اللّه، وللأسف الشديد فإن الكنيسة الأوروبية والمذاهب المسيحية أصبحت عاجزة عن صدّ التيارات اللادينية والإباحية في المحيط الأوروبي وفي البلدان المتأثرة به، كما أن رجال المسيحية قد أصبحوا خاضعين للصهيونيّة والماسونيّة وعاجزين في الوقت نفسه عن إقامة جسور التعاون مع الإسلام والمسلمين من أجل الاحتفاظ للدّين والأخلاق بوجودهما وتأثيرهما، مع أن هذا التعاون ضروريّ ومهمّ ليس بين الحريصين على الدين والأخلاق من المسلمين والمسيحيين فحسب، بل بين كلّ المؤمنين بضرورة الثوابت الدينيّة والأخلاقيّة للحياة، وهم الذين يسميهم الرئيس (علي عزت بيجوفيتش) في كتابه الإسلام بين الشرق والغرب (رجال الطريق الثالث) الذين يتكاتفون من أجل الوقوف ضد عبادة الآلهة الجديدة، وتقديس الأقانيم المادية البحتة، أو حسب تعبير رجاء جارودي

الميثولوجيا الانتحارية للتقدم وللنموّ على المنوال الغربي، ذلك المنوال الذي يتسم بالفصل بين العلوم والتقنيات (أي تنظيم الوسائل والقدرة) من جهة، وبين الحكمة (أي التبصر بالغايات الإنسانيّة والدينيّة) من جهة أخرى.

ويشير جارودي إلى ضرورة أن يكون هناك «نظام اقتصادي عالميّ جديد»، ولا يمكن أن يوجد مثل هذا النظام دون نظام ثقافي عالمي جديد؛ ينتقل بالإنسانيّة من الهيمنة الغربية العنصرية اللاأخلاقية إلى التشاور على مستوى الكرة الأرضية لإعادة تحديد مواصفات مشروع إنسانيّ شامل - (مشروع الأمل) فالحوار بين الحضارات أصبح ضرورة ملحة... إنه مسألة بقاء، ومهمتّنا هي أن نعقد الحوار من جديد بين حضارات الشرق، والغرب لكي نضع حداً لمونولوج الغرب الانتحاري.

- والانتحار - في معجم جارودي - مرتبط تمام الارتباط بالكفر، وهي كلمة لها معنى محدد عنده، فهو يعرف الكفر باعتباره «النظر إلى الأشياء كما لو كانت مستقلة عن أصلها وغايتها ومعناها» أي فصل الأشياء عن الدين الأخلاق والغايات العليا الدنيوية والأخروية.

وفي مقابل هذا الانهيار الغاياتي والأخلاقي العالمي، يضع جارودي الرؤية الإسلاميّة للواقع، التي تنطلق من فكرة (التوحيد) والتي تعطي لكل حياة ولكل شيء معنى بالنسبة لعلاقته بالكل، وهذا التوحيد ليس توحيداً جامداً، فالتوحيد الحقيقي هو (فعل من اللّه دائم الخلق، فعل من النبي، الذي بكلامه، الموحى به من اللّه، يكون ليس وحدة أو جملة ولكن فعل توحيد، فعل تجميع، فعل لكل إنسان يعي أنه ليس ثمة إله

حقيقي إلا اللّه وأنه في كلّ لحظة يربط كلّ شيء وكل حادث وكل عمل بمبدئه» (١).

❖ ❖ ❖

وسواء رضي أصحاب العقائد والرسالات الأخرى، ومثلهم أصحاب الطريق الثالث الذين يسعون لإنقاذ الإنسانية من الانتحار من أصحاب الضمائر والأخلاق.. أن يضعوا أيديهم في أيدي المسلمين أم لم يضعوا - فإنّ على المسلمين - حتى ولو وقفوا وحدهم ضد قوى الشرّ الصهيونية والماسونية والعولمية الأخلاقية والثقافية - أن يستميتوا في الدفاع عن الدين والحقّ والقيم الإنسانيّة الثابتة والأخلاق التي لا تستقيم الحضارة الإنسانيّة إلا بها..

وعلى الأمة المسلمة - ابتداء أن تطهّر أرضها من الأعشاب والحشرات الضارة، التي تنبت في صفوفها من أنصار الماسونية والصهيونية... (دعاة هدم الدين والاستسلام للباطل ونشر الإباحية الأخلاقية... إعلاميين أو فلاسفة أو مثّقفين)، فهؤلاء هم المتهودون من ذوي القلوب الكافرة والعقول المستأجرة الذين إذا لقوا الذّين آمنوا قالوا آمنّا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون!!.

وإنّه لمن الخيانة العظمى للّه إهمال الأمة الإسلامية لوظيفة البلاغ أمراً بمعروف ونهياً عن منكر وتثبيتاً لموازين الحق المطلق والقيم المطلقة التي تنتظم كلّ الإنسانية.

---

(١) نقلاً عن عبد الوهاب المسيري اليهود في عقل هؤلاء ص ١١٩، ١٢٠ سلسلة اقرأ ٦٢٠ - دار المعارف، مصر.

ومن الخيانة العظمى أيضاً خضوعها لمحاولات التدخّل في ثوابتها وتحريف دينها ومناهجها، وتعطيل حركة الدعوة والإغاثة والتكافل الاجتماعي بين أبنائها، تحت ضغط إرهابها بشعارات العنف والتطرف، بينما تعمل كلّ الكتب التنصيريّة، وبينما تحكم في الهند حكومة هندوسيّة، وتقام في أوروبا وأمريكا أحزاب مسيحيّة ويمينيّة متطرّفة، وفي إسرائيل أحزاب غاية في التطرّف والعنصريّة..

أما المسلمون فيحرمون وحدهم من تقديم دينهم للعالم، ومن الإعلان العلميّ الودود عن حقائق الإسلام العالمي الكفيل - قبل غيره - لو وجد رجالاً وظروفاً للتمكين - بإنقاذ سفينة الإنسانية من الغرق تحت وطأة اللادينيّة والانحلاليّة الحيوانيّة.. بوسائله الرحيمة الكريمة التي تجسدّها الآية القرآنيّة الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١).

ولقد أنقذ المسلمون العالم القديم في القرن السابع عشر الميلادي، وأنقذوا إنسانيّة الإنسان التي كانت قد تهاوت أمام استبداد القياصرة والأباطرة والوثنيات والصراعات اللاهوتية وعبادة الشهوات والغرائز، وبالتالي غيروا المفاهيم والعقول والمعارف والعقائد على المستوى الإنسانيّ كلّه بطرق متفاوتة بسطها الشيخ أبو الحسن الندويّ في كتابه العظيم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)...

- وهم الآن - وحدهم - المؤهّلون للدور نفسه، بعد أن أصبحت إنسانيّة الإنسان مهدّدة بالدمار والحيوانيّة البهيميّة واللادينيّة، كما يعلن (رينيه دوبو) في صدر كتابه (إنسانيّة الإنسان - نقد علمي

(١) الأنبياء: ١٠٧.

للحضارة الماديّة) من خلال أقواله: «نحن ندعي أنّنا نعيش في عصر العلم، إلا أن الحقيقة هي أن الميدان العلمي، كما يدار الآن، ليس فيه توازن يسمح للعلم بأن يكون ذا فائدة تذكر في إدارة أمور الإنسان...»

«... إن الحياة الشاذة التي يعيشها عامّة الناس الآن تخنق وتعطّل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقليّة ونموّ الإمكانات الإنسانيّة».

«.. إلا أنّ الاحتجاج على الأساليب التقليدية السائدة في السلوك، أو الاعتزال والانسحاب من النظام الاقتصادي الحالي لا يكفيان لتغيير الاتجاه الانتحاري الذي نسير فيه...!!» (١).

إن واقع المسلمين المريض الممزق المتخلّف في هذه الأيام لا يعطي المبرّر لأيّ مسلم - فرداً أو مؤسسة أو دولة - أن يتقاعس عن حمل هذه الرسالة لإنقاذ البشرية، وإنقاذ نفسه، وأداء الرسالة التي كلف اللّه بها المسلمين ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٢) - وأيضاً ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٣).

فالإسلام قام وانتشر وأنقذ العالم في ظروف أسوأ من ظروفنا، لكنّه وجد رجالاً تعاقدوا مع اللّه، وأخلصوا في تنفيذ العقد.. ﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) رينيه دوبو: إنسانية الإنسان - مؤسسة الرسالة بيروت ط١ ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.ص ٣٥.
(٢) آل عمران ١١٠.
(٣) البقرة ١٤٣.

اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...﴾[١] ولم يكونوا أشباه مسلمين، ولم يضلوا في الوسائل المحققة لأهدافهم، بل صبروا وصابروا واحتسبوا وامتلكوا أفضل الوسائل الحضارية للدعوة والتغيير.. ولم يعطوا أعداءهم فرصة تشويه الإسلام... فنصروا اللَّه حق النصر... فنصرهم اللَّه ومكّنهم في الأرض...

وتلك هي رسالتنا الثابتة... مهما كانت الظروف «إنها الدين والأخلاق»... وهي رسالة كلّ فرد، وكلّ حزب، وكلّ أسرة، وكلّ مؤسسة في المحيط الإسلامي.

الإسلام وحضارته في مواجهة الحضارة الماديّة والفوضويّة :

جنح الشهيد سيد قطب - رحمه اللَّه - إلى القول بأنه لا توجد حضارة سوى الحضارة الإسلامية، وهو يقصد بحضارة الإسلام حضارة كلّ الأنبياء... فالدين والنبوّة والوحي المتكامل مع العقل الموضوعيّ... هي جوهر ومسلمات كل حضارة... وبدونها... فلا حضارة..!!

ولو أن الشهيد سيد قطب قيّد كلامه ببعض الملاحظات الإضافيّة لكان كلامه مقبولاً، فالحقّ أنّ الحضارة الكاملة أو الصحيحة هي تلك الحضارة التي تقوم على العون - والوحي - الإلهيّين، وترتبط بالسماء، ولا تنسى روح الإنسان وأشواقه العليا التي تمثل جزءاً أساسياً من تكوينه الإنساني... كما تقوم - أيضاً - على العقل الإنسانيّ، وعياً وتخطيطاً، وإبداعاً وعلماً، وفناً، وتفصيلاً للوحي وتطبيقاً له في هذه الأرض!!

---

(١٠) التوبة ١١١.

لكن هذا لا يلغي وجود حضارات (ناقصة) أو (مؤقّتة)، يمكن أن تستمر لعدة قرون، ذات صلة مشوهة أو هزيلة بالوحي!!.

وهو فقه حضاري مال إليه العلاّمة الجزائري مالك بن نبي... إنصافاً للآخرين الذين استيقظوا برئة واحدة، ومشوا في الدروب بعين واحدة، ووصلوا - في بعض الأحايين - إلى ما لم يصل إليه الذين شلّوا فاعليّة الوحي، وأصبحت علاقتهم به شكليّة، فما انتفعوا بوحي صحيح يملكونه، ولا استهدوا بعقل صحيح يعملونه... وقد كانت للإمام الشيخ محمد الغزالي عبارة ذكية يصف فيها هذه القسمة الحضارية، فيقول: «إن المسلمين ناموا في النور (أي نور الوحي) بينما استيقظ غيرهم في الظلام».... أي بالعقل المحدود وحده!!

وابتداء نحمل المسلمين جزءاً كبيراً من المسؤولية في استيقاظ أوروبا بالعقل وحده، بعد أن قتلت الدين الذي كان رجاله يقتلون العقل في محيطهم، بينما وجدت أوروبا - وهي تستيقظ بعد هزيمتها في الحروب الصليبية - مسلمين لا يعرفون قيمة دينهم ولا تراثهم الذي هضمته تحقيقاً لنهضتها، بينما أصحابه يعيشون مخدّرين بأمجاد الماضي، بعيدين عن إدراك لما ورثوه وعاشوه في أسبانيا وصقلية ورودس والرّها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس، وظهرت الخلافة العثمانية فركزت جهودها المشكورة على القوة العسكرية حماية للمسلمين المهددين، بينما غفلت - عن عدم وعي - عن الجوانب العلمية والحضارية الأخرى، ولا سيما التنظيميّة والتكنولوجيّة!!

وهكذا كان الوعي الحضاري الإسلامي القائم على جناحي الوحي والعقل غائباً، فكان لذلك تأثيره - مع التأثير اللاهوتي الكنسي في محاربة العقل والعلم - في الاتجاه الأوروبي نحو عبادة العقل ونبذ الوحي، وفي التركيز على الجانب الماديّ والمصلحيّ والتكنولوجيّ والدنيويّ من التطور، بعيداً عن مزج هذه الجوانب الحضارية بالعناية الربانية، والوحي السماوي، ونصيب الروح والأخلاق والقيم والضمير في المنظومة الحضارية، حتى لا تسحق إنسانية الإنسان، وحتى لا يفقد الإنسان قيادة المادة للآلة، وحتى لا تنقطع الصلة الصحيحة بين اللَّه والإنسان والدنيا والآخرة والمصالح الخاصّة والعامّة...

وخلال قرون التطور الأوروبي في عصر النهضة (القرن السادس عشر، والسابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر الميلادية) بقي الوضع ينحدر إلى أن انتهى بوصول الحضارة المادية إلى وحش مفترس يسحق شعوباً لمصالحه، ويعيش على الخداع والكذب، ويستعلي عنصرياً، ولا مكان للآخرة في تخطيطه أو رؤيته أو معاملته للآخرين... ولا في تنظيمه الاجتماعي والاقتصادي والتربوي... حتى بلغ الأمر بكثير من فلاسفة الحضارة الذين عاشوا في ظلّ هذه الحضارة سنوات طويلة، وخبروها عن قرب، إلى أن يئسوا من إصلاحها... فها هو ابنها الكبير «رجاء جارودي» يسميها (حضارة حفاري القبور للإنسانية) وعلى غلاف كتابه (حفارو القبور) [1] يكتب شارحاً: (الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها).... ويأتي الجزء الأول من كتابه تحت عنوان:

(١) نشر دار الشروق - القاهرة ط١/١٤١٩ هـ.

«العالم المحطّم والهيمنة الجديدة»... ونحن لا نستطيع هنا استقصاء التفصيلات التي ذكرها؛ لأنها تحاول (محاولة صعبة) في أربعين صفحة حصر جرائم هدم الإنسانية خلال خمسة قرون من الاستعمار أدّت إلى نهب ثروات ثلاث قارات وإلى تدمير اقتصادياتها وتكبيلها بالديون [١].

أما الجزء الثاني فيتكلم فيه عن (أغراض الانحطاط).. وهو في نحو ثلاثين صفحة يحاول توضيح معنى الانحطاط الذي تقود من خلاله الولايات المتحدة العالم إلى الهاوية... إنه [٢] أي الانحطاط - قطع أواصر النسيج الاجتماعي لتحويل المجتمع إلى ذرات، لتخريب العلاقات بين الجماعات القومية، الاجتماعيّة أو الدينيّة، وذلك عندما لا تَعُد وحدة العالم هدفاً نهائياً وقاعدة كبرى.

ويعني الانحطاط على المستوى الفرديّ، الاهتمام بالنفس ورفض الآخر ورفض أي مسؤولية تجاهه، وعلى مستوى الجماعات، هو النزوع إلى السيطرة.

وعبادة السوق والملكيّة المطلقة للمال تقود مجتمعاتنا - كل مجتمعاتنا - إلى الانحطاط وإلى الموت. وتمثّل الولايات المتحدة كل أعراض الانحطاط، وبصورة أكثر عمقاً من الانحطاط الروماني وذلك لقيامها بالآتي:

١ - تفكيك النسيج الاجتماعيّ من خلال تراجع المسؤولية الجماعيّة لصالح الأنانيّة واللامبالاة.

---

(١) جارودي: حفارو القبور ص ١٧.
(٢) جارودي: حفارو القبور ٦٨، ٦٩.

٢ – تفكيك المجتمع بسبب تزايد عدم المساواة (التمييز العنصريّ) الاقتصاديّ والثقافيّ.

٣ – تفكيك مستقبل المجتمع، بسبب محاولة الاستفادة القصوى من الحاضر على حساب المستقبل، باستخدام الوسائل المتاحة دون الوعي بالأهداف النهائية الكبرى..!!

.. ولكن (جارودي) لا يتركنا عند تشخيص المرض أو تحليل أبعاد الأزمة، بل يقدّم لنا من وجهة نظره الوسائل الكفيلة بالمواجهة، ونحن نرى ضرورة أن نتعرّف عليها لنفيد منها، ولنضيف إليها، إنه يرى ضرورة القيام بما يلي:

١ – إيقاظ ردّ فعل شعبي ناقد حول أهدف الحياة وحول الأهداف النهائيّة لتاريخنا المشترك (وفي رأينا أن المسلمين هم الأولى بالتصدر في هذا الجانب)...

٢ – مفتاح حلّ مشكلاتنا الكبرى، هو تغيير جذري في علاقات الحضارة الأوروبيّة مع العالم الثالث بهدف قلب أساليب الضغط المدّمر لصندوق النقد الدولي، وأيضاً بالتوقف عن التدمير، عن طريق الهيمنة الاستعمارية للتنمية الداخلية.

وحلّ مشكلات الثقافة إذا ما أزيلت المزاعم الغربيّة بالتفوق وعالميّة نماذجها للنمو والثقافة، وذلك من أجل الانفتاح على الثقافات الأخرى، برغبة في التأثير المتبادل.

٣ – ونكرر بلا ملل: العقبة الرئيسة هي وحدانية السوق بنظريتيها الأساسيّتين:

- أسطورة الحداثة، وأسطورة الديمقراطية، من أجل محاربة ذلك لابد من تفاعل جهود كل من تمثل الحياة عندهم معنى: إيمان بالله، أو إيمان بالإنسان (أي لا حداثة بلا إيمان، ولا ديمقراطية بلا أخلاق).

٤ - تغيير نمط حياتنا لن يتّم فقط من خلال التبشير الأخلاقي وعكس الوضع الحاليّ، بل أيضاً عن طريق مشاركة لكل هؤلاء الذين لا يعيشون من التفكير الطفيليّ في الفساد، لكن يعيشون من الإبداع والإنتاج الحقيقيّ لخدمة المجتمع [١].

❖ ❖ ❖

وهكذا يشخص لنا رجاء جارودي الداء الحضاريّ الذي تعاني منه البشرية كلّها، نتيجة وجود قوة يسميها هو (الولايات المتحدة الأمريكية) تحفر للبشرية قبرها، وتقود في كلّ يوم شعوباً إلى الموت بدءاً من الهنود الحمر، إلى المخطوفين من أدغال إفريقيا، إلى إبادة الأفغان، والفلسطينيين، ثم العراقيين.. بصمت - وتواطؤ - من كثير من قوى العالم.

لكننا نرى أن الولايات المتحدة، بينما تقوم بحفر القبر العالمي وتفرض عصر الانحطاط، كما يرى جارودي هي - كذلك - من أوائل من سيصيبهم الزوال... فثمة (قوة صهيونيّة ماسونيّة قباليّة) تضرب بهم، وتضربهم في الوقت نفسه.. وهي التي تفعل ذلك بدرجات متفاوتة في أوروبا... بحيث يمكننا أن نقول: إنّ الحضارة الإنسانيّة كلها في

(١) المرجع السابق ص ٢٣، ١٢٤.

خطر.... والعميان - حسب تعبير بروتوكولات حكماء صهيون - لا يعرفون أنهم وهم يدمرون الآخرين إنما يدمرون الأرض كلها... بيئة، وأخلاقاً، ودیناً، وروحاً، واقتصاداً، واجتماعاً، وثقافة، وأحدية النظرة، عنصريّة المنطلق، نافية لما سواها.

وليس غير المسلمين بمنهجهم الحضاريّ الإنسانيّ الربانيّ، وباحترامهم للآخر، وايمانهم بالتعدديّة، وبوضعهم العلم في مكانه الصحيح... بناءً لا هدماً، وسيلة لا غاية، وإدراكاً لما يوصل لخشية اللّه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١)، وليس تقديساً للعلم، واستغناءً به عن اللّه والروح والضمير والدّين، فكأن هذا العلم (صنم ثابت قابل للعبادة) وعلى سدنته أن يروجوا لقداسته حتى وهو في أشد حالات تخريبه للإنسان، فالقنابل الذرية القاتلة توصف بالذكاء، والإبداع والقدرات الخارقة، والسباق يجري، - بجنون عقلاني - للمزيد من امتلاك أسباب الهلاك.

لكننا نحن - المسلمين - مطالبون بوضع حدّ لهذا الجنون العلمي، والنظر إلى العلم على أنّه نسبيّ، لا تقل عنه وسائل معرفية أخرى، من حيث إن الدين، والإيمان، والحسّ الكليّ... والفطرة هي أيضاً - مصادر متوازنة مع العلم لتحقيق المعرفة الصحيحة (٢)، وهي مصادر تميّزنا... وتحقّق لنا أهدافاً لا تتحقق في المستوى الإنسانيّ الآن، حيث الغلبة لعبادة العلم والمادةّ والقوّة...!!

---

(١) فاطر: (٢٨).

(٢) يحيى الرخاوي: نعيد النظر في كل شيء!! كارثة أم كاشفة - بتصرف - بحث لمؤتمر وزارة الثقافة المصرية (التغريبي) - مرجع سابق!!

وإذا كانت الحضارة الحديثة قد رضيت العلم والمادة والقوة...!!

فنحن - في مشروعنا الحضاري - نضع العلم في إطاره وحجمه حتى لا يتحول إلى آلة دمار وخراب... ولكننا نعده ركيزة أساسيّة في مشروعنا الإسلامي الحضاري الذي يقوم على مفاهيم مضامين محوريّة تتصف بالشمول والتكامل كيما تكون صالحة بمجموعها لتمثيل المشروع الحضاري الذي يمثّل بدوره الإسلام عقيدة وشريعة وفلسفة إزاء الكون والحياة والإنسان.

وهذه المفاهيم المحوريّة ليست مجرّد أفكار نظرية بل يجب إذابتها لا في بوتقة العمل الإصلاحي الحضاري فحسب، بل يتعّين انسيابها من الإصلاحيين أنفسهم، من حركاتهم وسكناتهم في رخائهم وشدتهم، وأن تترجم في أهدافهم وبرامجهم، بيوتهم وأعمالهم، وفي أفعالهم قبل أقوالهم، لتستحيل تلك القضايا والأفكار إلى أوكسجين منبعث في فضاء الإصلاح يتنفسه كل أحد... يتنفسه الرائح والغادي... القريب والبعيد.. الصديق والمعادي... أي أن يكون المشروع الحضاري روحاً ينفخ الإصلاحيون فيه الحياة بتمثلهم مفرداته، وسعيهم من أجل نشره وتنفيذه بكل إخلاص وإبداع وإتقان.. (١).

ومن أهم الأفكار المحوريّة التي تسهم في بلورة ذلك المشروع ما يأتي:

الإسلام: دين وتشريع وحياة.

---

(١) عبد الله البريدي: النموذج والمسار، (المنار الجديد، العدد ١٥، القاهرة، بحث في المسألة الحضارية.

أساس الحضارة: التوحيد الخالص العملي.

فهم ومعايشة وتطبيق القرآن حتى يكون هادياً للتي هي أقوم.

توحّد في المنطلقات: يوجب الانبثاق من الكتب والسنّة.

وقود التغيير: الفعاليّة الروحيّة

مفتاح التغيير الحضاري: الفكر بتحسين طرائق التفكير.

ومفتاح التغيير الحضاري العملي: ﴿إن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾

وإرادة التغيير: الرجل بأمة.

العلم بمجالاته وتراكميّته وترابطه.

تكريم الإنسان: معيار تفوق الحضارة.

تنمية الإنسان أوّلاً: مؤشر لفقه الأولوّيات الحضاريّة.

العدالة: ركيزة البناء الحضاري.

الموضوعية: البحث عن الحقيقة.

الحريّة: في إطار منضبط.

النقد عملية بنائيّة.

الإبداع: مقوّمات وبيئة.

نهج إداريّ فاعل: إنجاز التميّز وتميّز الإنجاز.

الوقت: فضاء الإنجاز ، العطاء.

الانفتاح والاستيعاب والإفادة من الآخر: في دائرة الخصوصيّة.

الرجل والمرأة: حلقتان متكاملتان وعاملان منتجان.

الجماعة قبل الفرد: نحن أولاً: (أي قبل أنا) (١).

ويضاف إلى هذه الأفكار المحورية: المقومات التي تنطلق منها الرسالة الحضارية الإسلاميّة الإنسانيّة، وهي مقوّمات يحصرها الشيخ يوسف القرضاوي في عشرين مقوماً لكنها - بيقين مقومات أساسية يمكن أن تضاف إليها مقومات أخرى... من هذه المقومات: رسالة العقيدة الموافقة للفطرة، ورسالة العبادة الدافعة للعمارة، ورسالة العقل المهتدي بالوحي، ورسالة العلم المرتبط بالإيمان، ورسالة الإيمان المقترن بالعمل، ورسالة العمل الملتزم بالدعوة، ورسالة الدنيا المعدّة للآخرة، ورسالة الجسم الممدود بالروح، ورسالة الموازنة مع الواجبات، ورسالة الحرية الخادمة للفضيلة، ورسالة الأخلاق المرتقية بالإنسان.. ورسالة الفرد المنتظم في أسرة ومجتمع، ورسالة المجتمع الذي لا يطغى على الأفراد، ورسالة الأمة المنفتحة على العالم، ورسالة الدولة المقيمة للدين، ورسالة التشريع المحقق للمصالح، ورسالة العدل المؤيد بالإحسان، ورسالة الفن الملتزم بالقيم(٢).

ويضاف إلى هذه المقومات تلك الخصائص التي يتميز بها نسيج التكاليف والأحكام والقيم الإسلامية كلها!!.

---

(١) عبد الله البريدي: المرجع السابق.

(٢) يوسف القرضاوي: هل عند أمتنا رسالة حضارية للبشرية؟ من بحث «حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا الإسلامية، موقع إسلام أون لاين بتاريخ ٢٠٠٢/٤/٢٩.

ومن هذه الخصائص (الوسطيّة والتوازن) دون إفراط أو تفريط، بين الروح والمادة، والفرد والمجتمع بين الربانيّة والإنسانيّة، بين الوحي والعقل، بين الروحيّة والماديّة، بين الأخرويّة والدنيويّة، بين المثاليّة والواقعيّة بين الماضويّة والمستقبليّة، بين المسؤوليّة والحريّة، بين الاتباع والابتداع، بين الواجبات والحقوق، بين الثبات والتغير.... بل هذا هو العجيب؛ تحقيق التكامل بين ذلك كله.. بين كل ما يبدو من ثنائيّات... وعلى رأس ذلك التكامل بين العلم والإيمان والوحي والعقل، والروح والمادة، والعدل والرحمة!!.

وفي ختام هذا النداء الذي نوجهه للمسلمين كي يدركوا قيمة ما عندهم من دين وحضارة وينبعثوا - بالتالي - لتقديم مشروعهم الحضاري، والأخذ بيد الإنسانيّة المهددة في وجودها - نذكر المسلمين بأن إمامهم محمداً (ﷺ) وتلامذته وأصحابه - - وهم الأميّون - قد استطاعوا صناعة الإنسان الأميّ القادر على تغيير الحضارة المادية العنصرية إلى حضارة ربانيّة إنسانيّة.

فهل يعجز المسلمون وعندهم الآن ملايين الباحثين والأساتذة ومئات الألوف من المدارس والجامعات... وعشرات الآلاف من العقول المهاجرة المبدعة الهاربة من الأوضاع الداخليّة الفاسدة.

هل يعجزون عن إنقاذ الإنسانيّة - ولديهم إمكانات هائلة - مثلما أنقذ أسلافهم الإنسانيّة من قبل، يوم أن كان الظلم والاستعباد وعبادة الغرائز والحروب هي القوانين المسيطرة على عالم القرون الوسطى؟!!

إنسانيّة الإسلام في مواجهة الحضارة الحيوانيّة:

توشك حضارة (الشذوذ) أن تصل بالإنسان إلى (أسفل سافلين) بعد أن عقدت لتقنين الحيوانيّة مؤتمرات التنمية والسكان، وعقدت لتقنين اللادينية والفوضوية مؤتمرات العولمة والعلمنة، بقيادة الماسونية والصهيونية والقبَّالية المسيطرة على مواقع التأثير السياسي والإعلامي والاقتصادي في العالم...

ونحن ملزمون بالتحذير من هذه الحضارة التي نسيت اللَّه والدين، وأصبحت مسيحاً دجالاً ينظر بعين واحدة ويكيل بكيلين، ويلعب بالعقول... ولهذا فنحن ملزمون بالإصغاء إلى (محمد إقبال) وهو يقول لنا: إياكم وهذه الحضارة اللاّدينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق، إن هذه الفتانة تجلب فتناً وتعيد اللات والعزى إلى الحرم، إن القلب يعمى بتأثير سحرها، وإن الروح تموت عطشاً في سرابها، إنها تقضي على لوعة القلب بل تنتزع القلب من القلب، إنها لص قد تمرن على اللصوصية فيغير نهاراً وجهاراً، إنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له».

ويتابع إقبال الذي عاش بين أحضان الحضارة الغربية تحذير المسلمين قائلاً:

- إن شعار هذه الحضارة: الغارة على الإنسانيّة، والفتك بأفراد النوع البشري، وإن شغلها الدائم التجارة، إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء، وبالحب البريء النزيه، والإخلاص للَّه إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة [1].

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي: روائع إقبال، ص ٧٠، ط الرابعة، ١٤١٨ هـ ١٩٩٨م، دار القلم، الكويت.

وأيضاً:

إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببني آدم الذي تقوم عليه تجارتها، وتنفق سلعتها، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء، الذي انتزع نور الحقّ من صدور بني آدم.

إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام ما لم ينقلب هذا النظام رأساً على عقب».

- إنها حضارة شابة - بحداثة سنّها والحيويّة الكامنة فيها، ولكنّها محتضرة تعاني سكرات الموت، وإن لم تمت حتف أنفسها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها، ولا غرابة في ذلك فإن كلّ وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار» ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود» (١).

وما تنبأ به (محمد إقبال) نعيشه اليوم، ولا سيما بعد مؤتمرات السكان والتنمية ووضوح الهيمنة الصهيونية على العرشين الأمريكي والأوروبي، وبعد أن ظهر خضوع بعض الكنائس وقساوستها لضغوط قيادات الشذوذ الجنسي، وعقد بعض الزيجات في بعض الكنائس بين الشواذ، وتمكين بعض الشواذ من القيام بخدمات لا هوتية، وهذا يجعلنا نَيْئَس من قطاع كبير من المسيحيين، ولا سيما طائفة البروتستانت، ونوقن في الوقت نفسه، أنّ الأصابع الصهيونيّة والماسونيّة وراء هذا الهبوط الذي دعت إليه بوضوح: بروتوكولات حكماء صهيون.

---

(١) المرجع السابق نفسه ص: ٧١.

ونحن هنا نؤيد النزعة الإنسانيّة والشموليّة التي يدعو إليها (إقبال) - أمة المسلمين - في مواجهة هذه الأخطار، فالأمّة الإسلامية ذات مسؤولية نحو الإنسانية كلّها، ونحن لهذا - نختلف مع العلاّمة (مالك بن نبيّ) الذي أخذ على إقبال أنه وهو «يخط للعالم الإسلامي طريق نهضته الروحيّة - طالب بصبغة في التفكير تمكّنه من النظر إلى الأشياء والتنظيمات «لا من حيث نفعها أو ضررها الاجتماعي الذي تعود به على بلد أو آخر بل من حيث الأهداف العظمى التي يسعى إليها مجموع الإنسانيّة» فهذا النوع من الفكر الميتافيزيقيّ الذي قال به إقبال قد يصطدم بالأذهان ذات النزعة العقلية، تلك التي ترى أن كل ما لا يدخل في نطاق المادة لا يدخل في نطاق العقل» - كما يرى مالك بن نبي [1] أن دخول العثمانيين إلى أوروبا كان سيحمل إلى أوروبا إسلاماً لا يعيش أصحابه عصر تألّق به، ولا فقه صحيح له، بينما كانت حضارة المسلمين في حاجة إلى شفق يغلفها لحظة أفولها.

- لقد كانت إحداهما - أي أوروبا - بداية نظام جديد، وكانت الأخرى - أي الخلافة العثمانيّة - نهاية نظام دارس، وما كان شيء في الأرض يستطيع أن يدفع عن العالم الليل، الذي أخذ يبسط سلطته آنئذ على البلاد الإسلاميّة في هدوء، فلو أن تيمورلنك كان قد اتبع دوافعه الشخصيّة لما استطاع شيء أن يحول دون نهاية الحضارة الإنسانية.

وأخيراً يتساءل - ويجيب - مالك بن نبي قائلاً: لماذا حال تيمورلنك دون قيام بايزيد وطغاطاميتش بنشر الإسلام في قلب أوروبا...؟

---

(١) وجهة العالم الإسلامي: ص ٣٦٠، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر، مشق ١٤٠٢ هـ

والجواب: لكي تتابع أوروبا المسيحية جهدها الحضاري الذي لم يكن العالم الإسلامي بقادر عليه منذ القرن الرابع، حيث كان في نهاية رمقه!!.

ومهما يكن من شيء، فإن مضمون هذه الأحداث التاريخية، ليس بالبساطة التي قد تظهر لأعين الذين لا ينظرون إلى الأشياء إلا من وجهة النظر الفرديّة، أو القوميّة، فهناك حسب تعبير إقبال «خطة للمجموع» هي التي تكشف عن اتجاه التاريخ [١].

ومن جانبنا نرى في مجال التعليق على الرؤية العميقة لفيلسوفنا مالك بن نبي أنّه لم يكن ضربة لازب، ولا قولاً واحداً، أن يكون الإسلام الذي يذهب به الخليفة (بايزيد) وإخوانه من الأتراك - إلى أوروبا، مثقلاً بكل الشحنات الخاصة - ذات الطابع العسكري الصارم - الذي يحمله جنود آل عثمان الذين تغلب عسكريّتهم وغيرتهم على فقههم الحضاريّ.. ولقد كان ممكناً أن يجد الإسلام في أوروبا الناهضة التنويريّة الصاعدة أرضه الخصبة التي يبحث عنها - في دورته تلك - لكي ينتج من خلالها منهجيّة إسلاميّة، حضاريّة، إيجابيّة، عقليّة، فاعلة.. بعيداً عن الجزئية والسكونيّة المشرقيّة..

وقد كان من شأن هذا - الواقع - أن ينقذ الإنسانية من المسيرة الحضاريّة الأوروبيّة التي تقدمت عقلاً على حساب دين الكنيسة الذي عجز عن استيعاب شروط النهضة... وكان في جهوده ووقوفه ضد العلم والعقل أسوأ - ألف مرة - من جمود العثمانيين.

---

(١) المرجع السابق: ص ١٦٤.

- وأيّاً كان الأمر... فإن الإنسانية اليوم - أوروبية وغير أوروبية - أحوج ما تكون إلى الإسلام الصحيح.. بعيداً عن تشرذم المسلمين وتخلفهم...

- ولعل الظروف الإنسانيّة المعاصرة.. والشباب المسلم المثقّف الحكيم الفقيه بدينه وبالواقع يحقّق هذا التلاحم بين الإيجابيات الأوروأمريكية التي لا يمكن إنكار قيمتها في الجوانب الماديّة والمعاشيّة... وبين إنسانيّة الإسلام التي تملك وحدها منهجاً إنسانيّاً عالميّاً يقوم على الرحمة والمساواة والأخوة بين جميع البشر في المجالين معاً:

مجال تحقيق سلم عام وعلاج تام لأمراض الإنسانية في الأوقات السلميّة، ومجال فرض الإنسانيّة في الأزمات والحروب....

فأما في المجال السلمي العام والظروف العادية، فإن منهجنا يقوم على اتباع منهج رسول اللّه (ﷺ) - وهو - للأسف - المنهاج الذي يفتقده عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها، أو يتسلّلون إليها من نوافذها، ويكافحون بعض الأدواء الاجتماعيّة والعيوب الخلقيّة فحسب، فمنهم من يوفق لإزالة بعضها مؤقتاً في بعض البلاد، ومنهم من يموت ولم ينجح في مهمته.

لكن منهاج النبّوة يأتي بيت الدعوة والإصلاح من بابه، ويضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه، ذلك القفل المعقّد الذي أعيا فتحه جميع المصلحين في عهد الفترة، وكلّ من حاول فتحه من بعده تغيّر مفتاحه، وهو مفتاح الدعوة إلى الإيمان بوجود اللّه وحده، ورفض الأوثان والعبادات، والكفر بالطاغوت بكل معاني الكلمة «يا أيّها الناس قولوا لا

إله إلا اللَّه تفلحوا!» والدعوة إلى الإيمان برسالات اللَّه، والإيمان بالآخرة، وبكل الأنبياء والرسل!!

وقد رأينا أن أصحابه عندما آمنوا وتفتحت قلوبهم على الحقائق الكبرى... عولج كل شيء.... لأن الإنسان قد عولجت فطرته... فأصبح مفتاح الفطرة مؤهلاً لعلاج كل الأمراض وإدراك كلّ الحقائق...

وهكذا يجب أن نفعل اليوم... والنتائج نفسها تنتظرنا - لو حاولنا أن نصبح (أمّة دعوة) أمة الحضارة الحقّة... خير أمة أخرجت للناس ومن ثم نحوّل أفراداً ومؤسسات ودولاً إلى (دعاة فقه حضاري خالص)، لنا مشروعنا لإنقاذ الإنسانيّة.. لا نصادم الباطل بالباطل، ولا العنف بالعنف، ولا دعوة الصدام بالصدام، بل بالحوار، والعدل، والإحسان.

إن من الواجب علينا في عصرنا هذا - أن نمضي على منهاج الرسول (ﷺ) في إصلاح الخلل العالمي، فلا ننسخ باطلاً بباطل، ولا نبدل عدواناً بعدوان، ولا نُحَرِّم شيئاً في مكان ونجلّه في مكان آخر، أو نبدل أثرة الأمة بأثرة أمة أخرى.

وإنما نجاهد في سبيل إخراج عباد اللَّه جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده، ونخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام [١].

وخطابنا - كذلك على خُطا رسول اللَّه (ﷺ) - لن يكون خطاباً لأمّة دون أمّة ولا لوطن دون وطن، ولكنّه خطاب للنفس البشرية وللضمير الإنسانيّ كلّه.

---

(١) انظر في تفصيل هذا سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٩٣، ٩٤.

وأما في المجالات الاستثنائية - مجالات الحروب والنزاعات، فإن الإسلام - كذلك - يقدم لنا الإطار الإنساني الذي يلزم بالتزامه، وعلى المسلمين أن يجاهدوا ليحملوا غيرهم على التزامه أيضاً...

ويقدم لنا (مارسيل بوازار) خلاصة النظام القانوني الإسلامي في هذه الحالات الاستثنائية في كتابه (إنسانيّة الإسلام) في هذه النقاط المحدّدة:

١ - حظر التجاوز والغشّ والظلم في جميع المجالات.

٢ - منع إنزال الأضرار الزائدة على الحاجة بالعدو، كالقتل، والقسوة، والتعذيب، المهين.

٣ - حظر أعمال التدمير غير المفيدة، ولا سيّما إتلاف المزروعات.

٤ - إدانة الأسلحة المسمومة والتدميرات الجماعيّة العشوائيّة.

٥ - التمييز بين المقاتلين، وهم يحملون في الجيوش الإسلامية شارات مميّزة - وبين المدنيين غير المشتركين بصورة مباشرة في القتال.

٦ - احترام المنسحبين من الالتحام، كالجرحى، والجنود المتمتعين بأمان موسّع - الحماية - وأسرى الحرب.

٧ - المعاملة الإنسانيّة للأسرى للذين يبادل بهم، أو يحررون من جانب واحد، حين تضع الحرب أوزارها، شرط ألاّ يبقى أيّ أسير مسلم في قبضة الأعداء.

٨ - حماية السكان المدنيين: احترام أديانهم - وبالتالي حضارتهم - رؤساء هذه الأديان، ولا شرعية لقتل الرهائن واغتصاب النساء.

٩ - تأكيد المسؤولية الفردية: إلغاء كلّ عقوبة تصدر بحقّ أشخاص عن جرائم لم يرتكبوها بأنفسهم.

١٠ - لا شرعية في مقابلة الأذى بالأذى والتدابير الردعية التي قد تكون مخالفة للمبادئ الإنسانيّة الأساسيّة.

١١ - التعاون مع العدو في الأعمال الإنسانيّة (١).

١٢ - منع كل مخالف لأحكام المُعاهدات التي يعقدها المسلمون منعاً باتاً..!!

والحقّ أن ما قدمه بوازار خلاصة قانونية كافية دالة على عظمة ما يملكه المسلمون للحضارة الإنسانية المعاصرة في شتى المواقف وفي كل الحالات... والمهم أن يجاهدوا في اللّه حق جهاده آخذين بأسباب التمكين والتأثير:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٢).

---

(١) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام ص ٢٩٤ منشورات لآلب بيروت ط١/١٩٨٠.
(٢) الحج الآية: ٧٨.

القسم الثالث

خطوات عملية في الطريق لوحدة الأمة الإسلامية

١ - جغرافية الانبعاث في ضوء عصر الشتات.

٢ - خريطة ثقافية للعالم الإسلامي

٣ - تقويم حصادنا الأكاديمي وتفْعيله.

٤ - وسائل لتوظيف البحوث العلمية.

٥ - إنشاء دور نشر كبرى عالمية

٦ - هيئات للنقد الذاتي وإحياء الأخَوّة والمؤاخاة.

٧ - فقه القرآن مع حفظه.

٨ - جمعيّات لمحاربة اليأس وزرع الأمل

٩ - تحجيم مشكلات الماضي.

١٠ - مشروع إسلاميّ عالميّ لدمج الثقافات القومية

جغرافية الانبعاث في ضوء عصر الشتات

في كلّ القرون كان اليهود موزعين في الأرض، وحتى في تلك الفترات القليلة جداً التي كانت لهم فيها شبه دولة، مثل أيام يوشع [١]، (فتى موسى) - عليهما السلام - أو كانت لهم فيها دولة مثل أيام داود، وسليمان [٢]، (عليهما السلام) كان اليهود - كذلك - موجودين بأعداد متفاوتة في عدد من البلاد المسكونة في تلك القرون.

- وهاهي أرض (ميعادهم المزعوم) قد قامت في عصرنا، وهاهم يبيدون الشعب الفلسطيني ليستكملوا تحقيق حلمهم في السيطرة العالمية.

ومع ذلك فليس ثمة تخطيط لديهم لترك مواقعهم المتمركزين فيها في أمريكا أو دول أوروبا المختلفة.. أو بقية دول العالم، والتجمّع الكامل في فلسطين!!

- فماذا تفيدنا هذه الحقيقة في واقعنا المعاصر.. حضارّياً وثقافيّاً؟

إن هذه الحقيقة تفيدنا في مواجهتنا الصريحة لواقعنا الممزق سياسيّاً عبر العالم - أكثريّات أو أقليّات - فهذا الواقع الذي يأسى له كثير من الناس فيحزنون عليه، يمكن أن يتحول إلى وسيلة قوة، ويمكن أن يتحول المسلمون إلى أدوات ثقافية فاعلة - عبر العالم - إذ ما أحسن توجيهه وتوظيفه؛ سواء من منظمّات دوليّة رسميّة أم شعبيّة كمنظمتي المؤتمر الإسلامي ورابطة العالم الإسلامي، أم من جهات محليّة في

(١) انظر سفر يشوع ص ٢٣٧ ط١ دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط

(٢) انظر سفر صمويل الأول ، والثاني ص ٤٥٦ ومابعدها (الإصحاح التاسع عشر ومابعده).

العالم تكون مؤهلة لكي تمد إشعاعاتها الثقافية والدعويّة إلى المحيط القريب منها، بحيث تشكل كل منها دائرة ثقافية تتجاذب وتتقارب مع الدوائر الثقافية القريبة منها، فتُقوي كلّ منهما الأخرى، وتتفاعل معها!!.

إنني أعترف هنا أنّ هذا الهاجس خطر لي عندما قرأت هذا النص الذي سأنقله من (برتوكولات حكماء صهيون) مشيراً إلى أنه سواء صحّت نسبة سند البروتوكولات إلى اليهود أم لم تصحّ (وفي رأيي أنها صحيحة جداً، ويدعمها الواقع المعاصر تماماً) فإن هذا لا يمنعنا من أن نقف طويلاً عند هذه البروتوكولات، وأن نعرف مما تقدمه من معلومات ثمينة، كيف يُدار عصرنا من خلال سيادة مركزية سياسية واقتصادية وثقافية في إطار واحد، توجهه لصالح الجماعة اليهودية وأهدافها.

إن النص يقول على لسان اليهود - أو الصهاينة واضعي البروتوكولات:

«لقد ضمن اللّه لنا، نحن شعبه المختار His chosen people نعمة التشتت the gift of the dispersion وفي هذا التشتت الذي يبدو في عيون الناس جميعاً كسبب من أسباب ضعفنا تكمن كلّ أسباب قوتنا، لتتبع منه الآن أسباب قدرتنا على أن نكون نحن سادة العالم كلّه، ولم يبق شيء يحول بيننا وبين أن نبني فوق هذه الأسس التي أرسيناها» [١].

وهكذا يفيدنا هذا النص البروتوكولاتي - أننا في علاجنا للواقع الثقافي الإسلامي - يجب أن ننطلق من المتاح والممكن، مستفيدين مما هو كائن دون أن نقطع الأمل، والعمل للوصول إلى ما ينبغي أن يكون.

---

(١) بروتوكولات حكمان صهيون، البروتوكول الحادي عشر، الفقرة الأخيرة، ترجمة ودراسة علي الجوهري، مكتبة ابن سينا.

وأتخيل - في البداية - أن يقسم المسلمون في العالم إلى قارات ثقافيّة؛ قد تختلف عن القارات الجغرافية، فأنا أزعم مثلاً أن العالم العربي - من وجهة نظري - لا يمكن أن ينقسم أسيوياً وإفريقيّا - بل ينقسم إلى كتلة إسلامية ثقافية تملك إرادة التغيير، وتحاوله، وتسعى إليه، وتتقبل الانخراط في سلك العاملين له، في إحيائه وإحياء الأمة العربيّة والإسلاميّة من خلاله وكتلة أخرى تعيش ظروفاً مضّطربة تجعلها لا تستطيع اتخاذ قرار واضح في الوقت الحاضر، ومع ذلك، فمن الضروري الوقوف بجانب هذه الكتلة لتجاوز واقعها البعيد عن العمل الثقافي الإسلامي؛ عن طريق تشجيع التواصل الثقافي الإسلامي معها، من خلال مؤسساتها الثقافية الموجودة، والعناصر الشعبية، أفراداً وجمعيات، والمراكز التقليدية الموجودة فيها.

ونستطيع - بعد ذلك.. أن نَعُدّ (أفريقيا غير العربية) كتلة ثقافية واحدة، ونتعامل معها من خلال منظور الكتلتين اللتين أشرنا إليهما عند حديثنا عن العالم العربي.

وهكذا نفعل مع بقية أجزاء العالم من خلال تصور للأرضية الحضارية، والخلفيّة التاريخيّة، لكل منطقة، فمنطقة جنوب شرق آسيا لها خصوصيّة تختلف في مذاقها وعاداتها الاجتماعيّة عن العنصر الهنديّ الإسلاميّ..

وهكذا - على امتداد الأمة المسلمة - يجب أن تحترم الخصوصيات في إطار الثقافة والحضارة الإسلاميتين... وأيضاً ينظر إلى توحيد

القوى القادرة ثقافياً على الفاعلية وإرادة التوحد لتقود التغيير الشامل في محيطها.

٢ - خريطة ثقافيّة للعالم الإسلامي:

ومع ذلك؛ فمن الجدير بالذكر - قبل أن ندخل في التفاصيل - أن نشير إلى أننا - ونحن نستفيد من تجربة اليهود أو التجارب الأخرى - سوف نلتزم بغاياتنا الإسلامية الكريمة. ووسائلنا النبيلة، فالغاية عندنا لا تبرر الوسيلة، فوسائلنا لا بد أن تكون إنسانيّة وكريمة مثل غاياتنا، ونحن - في النهاية - أمّة الرحمة للعالمين، ولا نسعى لكي نكون سادة للعالم أو مستغلين له، فحسبنا أن نكون دعاة للحقّ والخيرَ والعدل.

وعندما توضع الخريطة الثقافيّة، سوف يُعرف من خلالها الأمراض الثقافية، ويعرف - بالتالي - مناطق القوّة الثقافيّة، وتعرف مناطق الضّعف، وتتخذ الأساليب الممكنة لتفعيل القوّة الأولى، وعلاج القوّة الثانية.

إنّنا نرى (مالك بن نبي) ينعى على المسلمين أنهم منذ خمسين عاماً يعرفون مرضاً واحداً يمكن علاجه، وهو الجهل والأمية، ويعقّب على ذلك بقوله: «لكننا اليوم أصبحنا نرى مرضاً جديداً مستعصياً هو (التعالم)، وإن شئت فقل: الحرفية في التعلم، والصعوبة كلّ الصعوبة في مداواته، وهكذا أتيح لجيلنا أن يشهد خلال النصف الأخير من القرن العشرين ظهور نموذجين من الأفراد في مجتمعنا: أولهما: حامل المرّقعات ذو الأطمار البالية، وحامل اللافتات العلميّة... (يعني شهادات الجامعة والدكتوراهات).. دون علم أو إبداع!!

وإذا كنا ندرك بسهولة كيف نداوي المريض الأول، فإن مداواتنا للمريض الثاني لا سبيل إليها، لأنّ عقل هذا المريض لم يتقن العلم ليصيّره ضميراً فعّالاً، بل ليجعله آلة للعيش، وسلماً يصعد به منصّة البرلمان، وهكذا يصبح العلمُ مسخاً وعملة زائفة غير قابلة للصرف، وهذا النوع من الجهل أدهى وأمر من الجهل المطلق، وهو يشكل أكبر خطر نعاني منه... إنه العلم غير الموظف.

فلا بد من إزالة هذا المريض ليصفو الجوّ للطالب العاقل الجاد، وعليه فإن مشكلة الثقافة لا تخصّ طبقة دون طبقة، بل تخّص مجتمعنا كلّه، بما فيه المتعلم، والصبيّ الذي لم يبلغ مرحلة التعلم، إنها تشمل المجتمع كله، من أعلاه إلى أسفله[1].

٣ - تقويم حصادنا الأكاديمي وتفعيله:

وإذا ذهبنا نترجم كلام مالك بن نبي إلى مشروع عملّي، في ضوء الخريطة الثقافيّة الإسلاميّة التي ألمحنا إليها، فإننا نجد أنفسنا مطالبين بإعادة تقويم إجمالي لحصادنا الأكاديمي في القرن المنصرم.... لنأخذ منه ما يمكن أن يستفاد منه - من جانب - ولنقّدم، من جانب آخر، نقداً موضوعياً لمسيرتنا الأكاديمية، يحملنا على تجاوز مرحلة الولع بالشهادات والألقاب العلميّة، التي لم يقدم كثير من أصحابها إسهاماً حقيقيّاً في دفع عجلة التقدّم... حتى في المجالات الفيزيائيّة، والزراعيّة، والتكنولوجيّة؛ فضلاً عن المجالات الإنسانية.

---

(١) مالك بن نبي - مشكلة الثقافة ص ٧٢ -٧٣، دار الفكر ، بيروت (بتصرف)

ومن جانب ثالث، كي نستطيع شقّ طريق جديد لعملنا وثقافتنا، يجعلنا نمزج بين العلم والثقافة، أي - بمعنى أوضح - ينزل العلم إلى مستوى التطبيق العملي، بحيث يُصحب كل عمل علمي بمشروع ميداني، مهما كان التخصص الذي ينتسب إليه صاحبه، إنسانياً كان أو مادياً... ولتقريب الصورة نقول: إنّ كثيراً من أعمال المستشرقين ثبت أنّها موظفة لخدمة أوطان المستشرقين وحضارتهم، توطئة - عن طريق تقديم الأرضيّة الثقافيّة والمعرفيّة - لغزو بلاد المسلمين وغيرهم، ولتخريب علاقة المسلمين بدينهم، من خلال تقديم فكر إسلامي يركّز على التصوف المنحرف السكونيّ، ويشكّك في كلّ مراحل الحياة الإسلاميّة وتطبيقاتها. ومصادرها ورموزها. وقد ساح كثير من المستشرقين في بلادنا الإسلاميّة قبل أن يكتبوا بحوثهم، وتعاونوا مع الأجهزة المعنيّة في بلادهم، وكانوا خير عون لها في تحقيق الأهداف الاستراتيجيّة.

- وللأسف فإننا لم نكتشف هذه الحقيقة إلا في العقود الأخيرة؛ أما هنا - في عالمنا الإسلاميّ - فإن بحوثنا الاجتماعيّة والإنسانيّة تنطلق من تجريد، وتنظير، وتنتهي إلى معرفيّة غير موظّفة لا تخدم الواقع في شيء، وتنام - بعد ذلك - الرسائل والبحوث العلميّة على رفوف المكتبات الجامعية، بعد أن يحصل صاحبها على اللّقب المنشود ويشقّ طريقه في الحياة مزهّواً باللّقب الذي يحمله!!.

والسؤال هنا: كم من الرسائل والدراسات كتبت جامعة بين التنظير والميدان، عن بلدان العالم الإسلاميّ، وعن الأقليّات، سكانيّاً، واقتصاديّاً، واجتماعيّاً؟

لقد وجدت وما زالت توجد حتى بعد سقوط الشيوعيّة والاتحاد السوفييتي، بلدان، وجماعات إسلاميّة لا يعرف عنها المسلمون شيئاً، وقد يعرفون عنها القليل عندما تتعرض لمحنة، وقلما نسبق نحن - القادرين المسلمين - أعداءنا إلى كثير من البلدان التي تحتاج إلى عون.. وقد أصبح يقال عنا: إننا نصل دائماً متأخرين، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه!!.

وبينما يقوم شبابنا بدراسات أكاديمية شبه محنّطة؛ تقوم المراكز البحثيّة في العالم المتقدّم بتقديم أُطروحات في مجالات تهّم أممها، ودراسات حيّة حافلة بأحدث المعلومات، هذه الأطروحات والدراسات تشق طريقها المعروف سلفاً إلى أصحاب القرار الحضاريّ وصانعي السياسية، ومن هنا توظف المعرفة عملياً، ويمتزج العلم بالثقافة. ويقع التفاعل والتغيير!!.

٤ - وسائل لتوظيف البحوث العلمية

وفي محيطنا الإسلامي، واستفادة من التجارب الأخرى، ووصولاً إلى الحلول العمليّة في مجال البحوث الأكاديميّة وغيرها، نقترح عدداً من الوسائل العمليّة المحققّة للوحدة الثقافيّة، ويُعد من الضروري التوجيه إلى تقديم أُطروحات وبحوث توحّد الأمة في الفكر والثقافة، ولا تعمّق خلافاتها، فما دام المسلمون جميعاً يؤمنون بالمرجعيّة الواحدة ممثلة في كتاب الله وسنّة رسوله (ﷺ) فلماذا لا نقدم بحوثاً بعيدة عن الالتزام المسبق بوجهة نظر أحاديّة، سلفيّة كانت أو صوفيّة، بحيث تعالج الأمور دون حساسيات مُسبقة في ضوء كتاب الله وسنّة رسوله، وفي ضوء الانتماء الأعلى لمصلحة الإسلام العليا وللأمّة الإسلاميّة

الواحدة، التي نشأت واحدة، بلا مذهبيّات وتمزيقات، وما انتصرت إلا بالتوّحد والتوحيد.

وفي ضوء هذه الموازين نفسها توجّه بحوث إلى الجمع بين أجناس الأمّة في أصلها - كلمة واحدة - وفي صناعتها للحضارة الإسلامية، فقد تبادل راية قيادة الأمة العرب - كطليعة - ثم قام الفرس والترك والأكراد والبربر بكثير من الأدوار التي لولاها لما واجهت الأمة فترات ضعفها وجحافل أعدائها، ولما انتشرت عقيدتها، وحضارتها في الأرض، وإنكار هذه الأدوار خيانة للحق والتاريخ.

وفي ضوء هذه الموازين - كذلك - توجه أُطروحات وبحوث لتوحيد الأمة على ثقافة الانتماء للإسلام الذي يستوعب الوطنيّة والقوميّة ويرشدهما، ويجعلهما من وسائل زيادة الفعاليّة والتوّحد، لا من عوامل التمزيق، وأنا هنا أشيد بالخطوات التي قطعها الحوار الإسلامي القوميّ في لبنان وغيرها؛ لأنه بدأ على أساس صحيح ندعو إلى أن يُحتذى في كل مجالات التوحدّ الثقافيّ والفكريّ الأخرى، وهذا الأساس هو قيام كل جماعة بتقديم (ورقة نقد لنفسها) - فكراً وتجربة - ثم يدور الحوار بعد ذلك - على ضوء الأوراق - وصولاً إلى القسمات المشتركة، وإلى طريق المستقبل وفقاً لخطوات محددّة ولو بدأ الأمكر بالعكس، أي بنقد كل فرقة للأخرى؛ لفشل التوجّه التوحيدي من أول لقاء.. وأيضاً: كانت المنهجيّة علميّة، وكانت هناك غايات عليا مشتركة تهيمن على اللقاءات تتصل بمصلحة الأمّة العليا، وبتمكينها من مواجهة التحديّات العالميّة.

ويُعَـدُّ من الضـروري هنا - كـذلك - الإشـارة إلى الطابع الجـزئي والذري والافتراضي إلى كثير من البحوث المعتبرة التي قدمت في القرن الأخير، حتى أنه كان من علامات التوفيق للبحث - في رأي الكثيرين - أن تُوجُه البحوث إلى مجالات جزئيّة وهامشيّة ومجهولة وقليلة الاستعمال - أو الأهميّة المعاشيّة والعمليّة جداً، وقد حَفلتْ علوم اللغة والأدب والفقه بهذا اللون من البحوث، لدرجة أفقدت العقل المسلم والثقافة الإسلاميّة القدرة على تقديم تنظيرات شموليّة، ومذاهب علميّة في مجالاتها؛ ذات طابع شموليّ تجديديّ، كما فقدت القدرة على تطوير مواردها وتقديمها - بعد تبسيطها واكتشاف آليات معاصرة لها - للقطاع الأكبر من الناس، وللأسف فقد نجحت اللُغات الأخرى في أن يُقدمها أصحابها للناس في أجمل الصور، وبالتبسيط الممكن، وذلك على العكس من نصيب اللغة العربيّة المحدود في هذا المجال، كما أننا فوجئنا في الأدب والنقد بغزو المذاهب الهدّامة، ونحن عاكفون على دراسة جزئية جداً، مثلنا الأعلى فيها هو شيخنا الأخفش الذي مات وفي نفسه شيء من حتى!!

ولقد آن الخروج من هذا الواقع، وربط كل البحوث - حتى ولو كانت جزئيّة - بالنظريات والآليات والأهداف الكبرى، فهذه البحوث الممزقة الجزئيّة تعكس واقعنا الممزق الجزئي.

٥ - إنشاء دور نشر كبرى عالميّة:

ولعلّه من المفيد بل من الضروري - ولا سيّما في ضوء التحدّيات المعاصرة - أن ينشأ عدد معقول من دور النشر الكبرى - باللّغات

الإسلاميّة والعالميّة - تساعدها الحكومات، ويكون لها خطّ واضح وسياسة واضحة إسلامياً وحضارياً، وتدعم من الحكومات والمؤسسات التجاريّة ورجال الأعمال، وحبذا أن يكون فيه مجال للوقف الإسلامي... وتتولى هذه الدور طبع الكتب والمجلات الدوريّة بأسعار مقبولة مدعّمة، وفاقاً لخطّة واستراتيجيّة توازن بين التحديّات والممكن.

وحسبنا هنا أن نشير إلى أن إحدى الهيئات العاملة في مجال التأليف والنشر في بلد عربي كبير يسوق الكتاب - أحياناً - بسعر أقل من نصف التكلفة الورقية، وأقل من ربع التكلفة الشاملة، مما يعني الدعم لهذه الهيئة من الدولة ومن غيرها، ولو ملك العمل لوحدة المسلمين الثقافية عدداً من هذه الهيئات لأمكن اختراق كثير من الحواجز.

كما أننا نشير هنا إلى بعض السلاسل الناجحة مثل (عالم المعرفة) التي تصدر عن وزارة الإعلام في إحدى بلدان الخليج العربي، ولو كانت هذه السلاسل المعرفية موظفة لخدمة الثقافة الإسلاميّة الموحدة والباعثة على النهضة، والمزيلة لألغام التفريق، والمؤصّلة لقواعد الوحدة والتوحيد، لحقّقت كثيراً من أهداف العرب والمسلمين، لكن المشكلة الأساسيّة في هذه الهيئات والسلاسل أنها تصدر - في معظمها - مشوبة بتوجيه تغريبي، أو على الأقل - عند حسن الظن - بتوجيه علمي غير غائي، وإن كنّا نعرف أنّ كثيراً من المسؤولين فيها والمستشارين لها هم - للأسف - من غلاة التغريبيين، وهذا ما يجعلها عبئاً على الأمة - مادياً وفكرياً - فهي تهدم أكثر مما تبني، ويصدر عنها شرّ كثير وخير قليل .. وهذا يدفع دفعاً جميع الغيورين إلى إنشاء

البدائل لهذه المؤسسات التي لا تمثّل الأمة، بإسلامها وعروبتها، وإنما تمثّل أدلجة فكريّة ومذهبيّة ظرفيّة!!.

ونعتقد أنّ من أوجب الواجبات التركيز في النشر - خلال هذا الظرف الحضاريّ الذي نعيشه - على البحوث التي تقدّم الإسلام على أساس مبادئه الكليّة، ونظمه العقائديّة والمعاملاتيّة؛ سياسيّة واقتصاديّة، واجتماعيّة.

بالإضافة إلى تقديم كلّي لحضارة الإسلام، وتقديم موضوعيّ لتاريخ المسلمين يبرز صفحاته المشرقة الكثيرة، ويعالج بحكمة سلبيّاته التي تنتمي إلى عالم البشريّة. وصناعه ليسوا ملائكة ولا أنبياء، لكنهم - كما تثبت أي مقارنات حضارية - أعظم البشر بعد الأنبياء، وحضاراتهم الإسلاميّة حضارة إنسانيّة، علميّة، إيمانيّة، ربّانية، لم تعرف البشريّة لها نظيراً، ولم تعرف نماذج يقتربون من نماذج الصحابة والتابعين ومن سار على دربهم إلى يومنا هذا.. وإنّ البشرية في عصرنا أحوج ما تكون إلى قيادة هذه الحضارة إنقاذاً للإنسانية من حضارة القوّة والمادّة والعنصريّة وحروب الإبادة التي تمثّلها الحضارة الأوروأمريكيّة!!.

٦ - هيئات للنقد الذاتي وإحياء فريضة الأخوّة الإسلاميّة:

وقد ألمعنا في بداية حديثنا إلى ضرورة النقد الذاتي عن طريق قيام كلّ جماعة بنقد ذاتها حتى ترى الخشبة التي في عينها قبل أن تبصر القشّة في عيون الآخرين، وتعمى عن رؤية ذاتها وتفصيلاً لهذا الملحظ، وتحويلاً، إلى برنامج عملي يسهم في تحقيق الوحدة الثقافيّة والفكريّة وإحياء المرجعية الأصيلة والوحيدة للكتاب الكريم والسنّة الشريفة اقترح

- في إطار رابطة العالم الإسلاميّ - إنشاء هيئة لتوحيد الفكر الإسلاميّ على أساس الالتزام بالثوابت، وعلاج نقاط الاختلاف، بين عناصر الأمّة ومفكّريها، وذلك شريطة أن يكون هناك ممثلون للسلفيين، وللصوفيّة، وللشيعة - ولا سيما الزيّدية والاثنا عشريّة - ولبعض التوجّهات الفكرية لأهل السنّة، مثل تيارات العمل الدعويّ الفكريّ، والدعويّ السياسيّ، والدعويّ التربويّ، وغيرها...

وعلى هؤلاء السير على نهج (نقد الذات)، وصولاً إلى رؤية مشتركة تُقَدِّم لكلّ العالم الإسلامي، وسطيّةً إسلاميّةً ترجع إلى المرجعيّة التي لا يأتيها الباطل، وحبذا أن يخرج عن هؤلاء دستور للتوحّد الإسلامي، يشاع في كل بلاد المسلمين من خلال هؤلاء الممثّلين للأمة، خروجاً من مرحلة النية والصدام التي عشناها خلال القرن الماضي.

لقد عشنا القرون الأخيرة غافلين عن تشغيل ملكة نقد الذات... بينما تقدّمت أوروبا عندما أخفقت في الحروب الصليبية وأدركت أنه ليس بالحروب العسكريّة تقضي على الإسلام والمسلمين، وأدركت أيضاً أن الطريق لنجاحها يقتضي اقتباس ما عند المسلمين، واقتباس نظام الإسلام، دون اقتباس عقيدته وروحه، وأدركت ثالثاً أن هزيمة المسلمين تكمن في فصلهم عن الإسلام.

وفي مواجهتنا لأنفسنا أولاً، وللحضارة الأوروأمريكية ثانياً، ما أحوجنا إلى (مؤسسة نقد الذات) تتبناها هيئة أو هيئات إسلاميّة عالميّة، أو تتبناها إرادة شعبيّة.

وقد تعبنا دون نتائج من نقد بعضنا لبعض، لأن نقد الآخرين أسهل بكثير من نقد النفس، وذلك لأن الإنسان حين ينقد نفسه يقوم بدور الحَجَر والنَّحَّات في آن واحد، ولقلّة ممارسة النقد والمراجعة لدينا، فإن قليلاً من الأفكار لدينا يصمد إذا تناوله أي نقد سطحيّ، والغريب أن لدينا بعض المؤسسات والجماعات لا ترضى عن أي عمل أو فكر، وهي طول عصرها تنتقل من إخفاق إلى إخفاق دون أن يكون ذلك حافزاً لها نحو أي وقفة تأمل! إنها تملك مناعة خاصة ضد آلام التجربة [1]!.

أليس عجيباً أن يظلّ بعض المصريين على التشيّع لآل البيت - وآل البيت منهم براء - أعداء ثابتين لأبي بكر وعمر وعثمان وجمهرة كبيرة من الصحابة رضي اللَّه عنهم طيلة أربعة عشر قرناً؟!!

وأليس عجيباً أن تبقى بعض الطرق الصوفيّة عاجزة عن تقويم مسارها على هدي كتاب اللَّه وسنّة رسوله (ﷺ) مع أنّها تؤمن بهما وتتعامل معهما في كلّ يوم؟!!.

وأليس عجيباً ألا ينجح بعض المحسوبين على السلفيّة في نقد آليّاتهم، وفي الالتزام بالحكمة، وفي الحوار مع مخالفيهم من المسلمين، مع أنهم لا يستطيعون إخراجهم من الإسلام، كما أنه ليس من المصلحة إخراج المخطئين من الإسلام بل المصلحة تقتضي إيثار (الأخوّة الإسلامية) التي تفرض العمل على إنقاذ أخيك من النار والتواصي بالحق وبالصبر...؟!!.

---

(١) د. عبد الكريم بكار: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي - دار القلم - دمشق ص ٣٠ ، ٣١، ط١. ١٤٢٠ هـ.

إن جميع العاملين للإسلام يجب أن يضعوا موضع التطبيق العمليَ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾(٦)، وأن يجعلوها دستوراً يتحركون من خلاله، وأن يعلموا أنّه لولا هذه المؤاخاة - في أروع صورها - لما استطاع مجتمع المدينة أن يتحرك كتلة واحدة في بناء دولة الإسلام الأولى، ومواجهة الكافرين من الخارج، والمنافقين من الداخل.

وعندما نضع هذه الآية الكريمة دستوراً لوحدة المسلمين الثقافيّة؛ مؤثرين الأخّوة على أي عصبيّة ستتوحد عقولنا وقلوبنا ومسالكنا، وصولاً إلى الوحدة الحقيقيّة الشاملة... نعم، فإن الإنسان بعقيدة واحدة يستدعي حتماً توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد.

ووحدة العقيدة هذه تقتضي وحدة المجتمع...

- أجل: ولماذا لا تتوحد أيها المسلم مع أخيك؟

- إن خالقكما واحد، ومالكما واحد، ومعبودكما واحد، ورازقكما واحد.. وهكذا.. واحد، واحد، واحد، إلى أن تبلغ الألف، ثم إن نبيّكما واحد، قبلتكما واحدة، وهكذا... واحد واحد؛ إلى أن تبلغ المائة، ثم إنكما تعيشان معاً في قرية واحدة، تحت ظل دولة واحدة، في بلاد واحدة.. وهكذا واحد، واحد؛ إلى أن تبلغ العشرة.

فلئن كان هناك - إلى هذا القدر - من الروابط التي تستدعي الوحدة والتوحيد والوفاق والاتفاق والمحبة والأخوّة، ولها من القوّة

(٦) الحجرات: الآية ١٠.

المعنويّة ما يربط أجزاء الكون الهائلة، فما أظلم من يعرض عنها جميعاً ويفضل عليها أسباباً واهية؛ أوهن من بيت العنكبوت، تلك التي تولد الشقاق، والنفاق، والعداء.

وإن كنت تريد أن تعادي أحداً فعاد ما في قلبك من العداوة - على سبيل نقد الذات - واجتهد في إطفاء نارها واستئصال شأفتها؛ وحاول أن تعادي من هو أعدى عدّو، وأشد ضرراً عليك؛ تلك هي نفسك التي بين جنبيك، فقاوم هواها، واسع إلى إصلاحها، ولا تعاد المؤمنين لأجلها، وإن كنت تريد العداء أيضاً فعاد الكفّار والزنادقة، فهم كثيرون!!

وإن أردت أن تغلب خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فبه تخمد نار الخصومة، أما إذا قابلت إساءته بمثلها فالخصومة تزداد[1].

وهكذا يملى علينا فقه آية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أن نحولها إلى برنامج عمليّ عن طريق هيئة مستقلّة ليس هدفها مجرد التقريب، بل هدفها إحياء ملكة النقد الذاتي، وتأصيل الحوار بين المؤمنين بالحب، وإحياء فريضة الأخوّة الإسلاميّة.

٧ - فقه القرآن - مع حفظه - من وسائل الوحدة الثقافية :

هناك أمور يجب أن نتجاوزها بعد أن ثبتت قلّة فاعلّيتها؛ ففي عصور السلف كان حفظ القرآن مقروناً دائماً بفهمه؛ حيث كانت اللغة العربية قريبة من الجميع: دلالات وجماليّات، كما كان الأسلاف حريصين على فقه القرآن وتدبّره والعمل به، ومضت حياة المسلمين في

(١) النورسي: المكتوبات، ص ٣٤١، ٣٤٣، طبع سوزلر الطبقة الثالثة، ٢٠٠١ م - مصر.

القرون التالية قريباً من ذلك، وكلّ من يحفظون القرآن، كانوا غالباً يقرنونه بدراسة بلاغته وبيانه وأحكامه التشريعيّة وعظاته وعبره وتفسيره من وجوه شتّى، واذكر وأنا طالب في الثانوي الأزهري أني فهمت قضايا البلاغة والنحو من خلال درس التفسير والحديث - تطبيقاً - أكثر مما كنت أفهم هذه العلوم مجردّة بعيدة عن القرآن.

ولا نستطيع أن نتجاهل أنّ الجامعات الإسلامية ومعاهدها قد اقتحمتها مجالات معرفيّة على حساب العلوم الشرعيّة حتى تعرّض حفظ القرآن بدوره لتراجع كبير، ولا نستطيع أن نذكر أن الكتاتيب ومدارس تحفيظ القرآن تقف وراءها جهود مخلصة إخلاصاً شديداً... لكن استمرار الوضع على هذا النحو لم يعد مقبولاً، حتى علم التجويد، مع احترامنا له.. لا يُغني عن ضرورة الترابط بين حفظ القرآن وفهمه وفقه بيانه وأحكامه ومعانيه حسب طاقة كلّ حافظ وعمره العقليّ!!.

ويذكر الشيخ محمد الغزالي أن هذه الطريقة في الحفظ لألفاظ القرآن وسوره قد صرفته عن معان كثيرة، حتى وهو كبير، لأنه ألف أن يحفظ الكلام دون فهم للمعنى، وألف أن يغلب الحفظ التدبر وإحسان الوعي لمعاني الكتاب الكريم، لدرجة أنه أشار إلى نتيجة لا نوافقه عليها، كما أنه هو نفسه قد طلب الرأي فيها من الآخرين، حتى لا يظلم هؤلاء المخلصين الذين ينشطون في مجالات تحفيظ القرآن، وهذا الرأي الذي أشار إليه الشيخ ذكر فيه أن بعض الكتاتيب أساءت إلى القرآن من حيث تريد الإحسان، وأنها خَرَّجت أشرطة مسجّلة، ولم تخرج كيانات حيّة للناس... ثم تساءل الشيخ الغزالي، ما قيمة حفظ

الألفاظ إذا كنا سنقتصر عليها ونقدم للمجتمع ببغاوات تجيد - إن كانت صيّتة - موسيقى الأداء، وإن كان غير صيّته تجيد الحفظ العادي، وينتهي الأمر؟

أرى أن الأمر يجب أن يطرح، وأن يكون موضع مراجعة، وحوار، ومناقشة، وأخذ ورد، من قبل متخصصين في التربية وعلم نفس الطفل، لأني في الحقيقة كاره لهذه الأشرطة، التي تجعل الناس يحفظون ولا ينتفعون.. وفي الوقت نفسه أحب بقاء واستمرار التواتر القرآني، فهل في الإمكان أن يحفظ الطلاب قطعاً من القرآن الكريم وأن يُقرَّب لهم المعنى نفسه [١]؟!

إن المسلمين اليوم - فتياناً وشباباً - يلزمهم أن يعيدوا النظر باستمرار في طريقة توفير القرآن إلى الطلبة والأطفال وإعمار قلوبهم وعقولهم بالمعاني الإجمالية التي تتناسب مع عمرهم العقلي، وتعويدهم البحث في معنى الألفاظ وما وراء الألفاظ، وما أظن الصحابة رضوان اللَّه عليهم، كان عندهم عدد كبير من حفّاظ القرآن... ربما كانوا نسبة قليلة في المائة... ولعل الأمر الأكثر بروزاً عندهم، كان تمثل المعاني وترجمتها إلى واقع، على الرغم من كثرة الحفظة وكتاب الوحي... وهذا الفهم لكتاب اللَّه - مفردات ومعان إجماليّة - هو ما نفقده اليوم.

ولكي نعود إلى ديننا، لا بد أن نعود إلى القواعد التي انطلقنا منها قديماً... فعمر رضي اللَّه عنه، الذي يقول لقائده... (متى استعبتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) فاهْمَ للقرآن... وعمر الذي يقول

---

(١) محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن ص ٣٢. ٣٣، دار الوفاء، ط ٤، ١٤١٤، مصر.

(لو عشتُ لهم لوصل إلى الراعي في صنعاء حظه من هذا المال)... (ما أحد أولى بهذا المال من أحد)... إنه فاهم للقرآن [١] فبفقه القرآن... وحفظه فتحوا العالم.

وهذا يوجب علينا في رابطة العالم الإسلامي وغيرها - كما أنشأنا هيئة لرعاية المساجد، وهيئة لرعاية المدارس الإسلاميّة - أن ننشئ هيئة - بل هيئات - لتطوير الكتاتيب ومدارس تحفيظ القرآن (فضلاً عن إنشاء المزيد منها) بحيث يجمع الحافظون للقرآن بين الحسنيين، وكما كان هذا الفهم للقرآن، فهماً أدى إلى حسن تدبره وتمثله والسير على هديه في الحياة - من وراء انطلاقة المسلمين الأسلاف، فإننا نأمل أن ننطلق به - ومنه - في عصرنا الحديث لإنقاذ المسلمين والإنسانيّة، ولن يتحقّق ذلك إلا بالجمع بين الألفاظ - ولو كان أقلّ مما ألفناه - والفهم والتدبير والعمل... فالقرآن، كان - وسيبقى - ضمير المسلم وعقله ودليل تفسيره للحياة والإنسان والكون، ومنهجه في التعامل مع أخيه الإنسان، ومع اللّه...

كما أن الكتاتيب - شكلاً - تحتاج إلى تطوير يليق بكتاب اللّه وتلامذته، وكذلك يحتاج القائم على الكتاب إلى تغيير أساليبه، في ضوء التطورات التربوية، وهذا ما تقوم به المؤسسات راعية تطوير الكتاتيب ومدارس تحفيظ القرآن، واثقين من أن الالتقاء على فقه القرآن وتفعيله في حياتنا من وسائل الوحدة الإسلاميّة العقدية.

---

(١) محمد الغزالي: المرجع السابق، ص ٤٣، ٢٢٣.

٨ - جمعيّة محاربة اليأس وزرع الأمل والعمل:

يرى الداعية الإسلامي التركيّ الكبير بديع الزمان سعيد النورسي، أن إخفاق المسلمين في القرون الأخيرة، يرجع إلى ستة عوامل، ويرى أن تغيير هذه العوامل إلى ضدها هو الطريق لبعث الأمة الإسلاميّة وتحقيق نهضتها، وهذه العوامل هي (اليأس) و (موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية) و(إيثار المصلحة الخاصّة) على المصلحة العامة، و(حب العداوة)، و (الجهل برابطة الأخوة الإسلاميّة النورانيّة)، و(سريان الاستبداد في حياتنا الاجتماعيّة، والسيّاسيّة) [١].

فنحن نرى أنّ اليأس كان السبب الأول في خمولنا ولجوئنا إلى الانعزال والتخدير السكوني الصوفي، وما زال حتى اليوم يعمل عمله فينا عندما نواجه اختباراً من الاختبارات.

وبعض الناس قد نفضوا أيديهم من الأمل، والعمل بحجة أن معظم الحكام المسلمين قد تخلّوا عن الأمّة لحساب أعدائها، وأنّ الصهيونيّة وأمريكا قد ملكا العالم، ناسين أنّ هذا لو وقع لكان تدميراً للإنسانيّة، ونهاية للدنيا بنص القرآن الكريم؛ كتاب اللّه الذي يقول فيه سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]، وناسين كثيراً من الآيات والأحاديث التي

---

(١) انظر: صيقل الإسلام، ص ٤٩٢ ومابعدها نشر سوزلر، ط٣، مصر ٢٠٠٢.

(٢) سورة يونس: اية ٢٤.

تزرع الأمل وتحثّ على العمل. وأنّ المسلمين قد مرّوا - وهم صحابة رسول اللّه - بمحن كثيرة ولكنهم لم ييأسوا من رحمة اللّه، وكان اليأس عندهم دائماً قرين الكفر والنّفاق، ولعلَ ما أصابهم في أُحد والخندق ومؤتة كان من أقوى الاختبارات، ومع ذلك ظَلوا يؤمنون بأنهم مبتعثون لإخراج العباد من جور الأديان إلى عدل الإسلام، ولهذا صبروا وصابروا و رابطوا واتّقوا اللّه، واثقين من نصره فغربت على أيديهم شمس الحضارة عن المدائن والقسطنطينيّة لتشرق في مكّة والمدينة وجزيرة العرب، وهذا يملي على الذين يسارعون إلى اليأس، وعلى جميع المسلمين كذلك أن يُدركوا أنّ التاريخ ليس سجل معارك حربية منفصلة أو منكسرة، قدر ما هو سجل مستويات عقائد وأخلاق، وقدرة على تطويع الحياة للقيم الرفيعة.. وأباؤنا الأوائل نماذج عمليّة لذلك كله.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أنّ الفتن في حياة الأفراد والجماعات شيء لابد منه، وهي سنّة إلهية ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[١]، ومواجهة هذه الفتن لا يكون بالاستسلام واليأس، بل باليقظة والرشد، وإلغاء كلمة المستحيل، ونشر أشعة الأمل لأنّ هذا هو شأن الربانيين الذين لا يقطعون حبال الرجاء من كرم اللّه، مهما ادلهمّت الظلمات، ومهما كانت هناك جبال تنتظرهم من المهمات، ومهما كان الضعف في الوسائل والإمكانات[٢].

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٢.

(٢) انظر محمد الغزالي - الدعوة الإسلامية في القرن الحالي ص، ١٧٩، ١٨٠ (بتصرف) ط١ ١٤٢١، دار الشروق مصر، وانظر عبد الكريم بكار: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، ص ١١٣ بتصرف، ص ٣٣.

إننا لا يجوز أن نفهم أحاديث الفتن وغربة الإسلام فهماً خاطئاً، ولا سيما وقد واستقر في بعض الأذهان أن الفتن حكر على الفصل الأخير من رواية الإنسانية، وأن المسلمين سوف يواجهون آخر الزمان جزراً لا مدَّمعة، وأدواء لا أدوية لها.

وهذا جهل كبير، فالواقع أن أحاديث الفتن لا يجوز أن يقرأها العامة، ولا أرى أن يقرأها إلا المختصون في علل المجتمعات وأطوار الأمم وأسرار التاريخ، وإن الحديث عن غربة الإسلام ليس حديثاً عن مستقبل دين كما يتوهم بعض الناس، ولكنه حديث عن عرض يعرو الدين حيناً، ثم يذهب بذهاب أسبابه.

ونستطيع أن نؤكد أن البعث يجيء وللحق أنصار شداد وألوية مرفوعة وكتائب تحميه وتقرّر هيبته وتستبقي كتابه العزيز، إن هذا ما ينضح به قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(١).

وأمام هذا الأمل القرآني الرّباني يجب أن يتوارى اليأس من حياتنا ولا سيّما وأنّنا لن نكسب من وراء اليأس إلا انحسار الذات وخمود النشاط وارتباك الوعي.. ومن المهم في هذه الظروف الصعبة أن تستخرج الإيجابيات وخمائر الإصلاح والصلاح، أما تعداد السلبيّات فهذا يستطيعه كلُ أحد، إنّ النقد ليس الكشف عن المصائب فحسب، بل الكشف عن مساحات الخير والجمال أيضاً، إن جزءاً من انتصار

(١) سورة الروم: آية ٥٦، وانظر الشيخ محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية في القرن الحالي ١٨٠.

الإسلام لن يكون بالجري وراء العالم لإصلاحه. ولكن بعودة العالم إليه بعد انسداد السبل أمامه، وإنّ الوقت يعمل لصالح هذا الدين، وإنّ علينا أن نتعلم فضيلة الانتظار [١].

في ظل ظروف الهيمنة العولميّة الصهيونيّة الأمريكيّة والحرب العالميّة على الإسلام (بأساليب التدرّج والالتهام قطعة قطعة وليس بأساليب الحروب الصليبيّة القديمة).. في ظل هذه الظروف من الضروري إنشاء رابطة تتجه إلى الأمّة المسلمة كلهّا، - أكثريّات وأقليّات - لنزع اليأس، وزرع بذور الأمل وتحقيق الوحدة حول مبدأ العمل ﴿اعملوا فسيرى اللَّه عملكم ورسوله﴾... ومبدأ اليقين بأنّ نصر اللَّه قادم ﴿إن تنصروا اللَّه ينصركم﴾ حتى ولو كنا مجرّد (عصا موسى)!!.

٩ - تحجيم مشكلات الماضي الفكرية طريق للتوحد الثقافي المعاصر:

لا ينطلق التخطيط للمستقبل من فراغ، فلابد من معالجة مشكلات الماضي الجاثمة على صدر الحاضر، حتى ينطلق التخطيط إلى تحقيق أغراضه بأيسر السبل، دون أعباء يحملها على كاهله!!.

ومن المعروف أنّ أوروبا مثلاً قد وقعت بين أقطارها حروب دينيّة امتدّت قروناً، كما أن الحربين العالميتين قامتا بين أجزاء أوروبا.. وعلى ذلك سعت أوروبا، مع بقاء أجزائها على ما هي عليه ديناً كاثوليكياً أو بروتستانتياً أو أرثوذوكسياً، ومع لغات مختلفة - إلى التوحيد، وقطعت

(١) د. عبد الكريم بكار - مرجع سابق، ص ٣٣

في ذلك شوطاً بعيداً يمثل نموذجاً للنجاح العقلاني المصلحي المتدرّج... والأمر قريب من هذا بالنسبة للعرب والمسلمين، فلا يمكن للعرب أن يحلوا مشاكل المستقبل، إلا إذا حلوا المشاكل التي أورثهم إياها الماضي... ولا أظن أن هناك من يستطيع أن يجادل في أنّ الماضي يشكّل في الوعي العربي الراهن عنصراً محورياً في إشكاليّاته، ومن السذاجة إغفاله أو القفز فوقه.. وهل نحتاج إلى التذكير بأن كثيراً من المسلمين يتقاتلون بدوافع ترجع إلى ذكريات من الماضي، مثل ذكريات الصراع السياسي الذي خلدته الحرب بين علي ومعاوية رضي اللّه عنهما؟

وإذاً: يجب البدء بإزالة الضباب عن رؤيتنا للماضي كي تتضح أمامنا معطيات الحاضر ومعالم المستقبل، ويجب أيضاً التخطيط لثقافة الماضي، كي نستطيع التخطيط لثقافة المستقبل بوعي صحيح غير شقيّ [١].

والحقّ أننا مطالبون بإعادة كتابة تاريخنا الثقافي العربي والإسلامي بشكل جديد، يدفع إلى وضع مناطق الصراع والخلاف في إطارها كتعبير بشري، يمثل جزءاً هامشياً محدوداً بالنسبة لنسيج تاريخنا وحضارتنا التي ظلت - كما يقول وُول ديورانت - الحضارة الأولى في العالم لأكثر من عشرة قرون...

ومن المؤسف أنّ كثيراً من المعاصرين ممن يكتبون التاريخ الثقافي العربي والإسلامي ما يزالون يركزون على هذه المعابر الخلافية حتى يبدو تاريخنا الثقافيّ والحضاريّ مجّرد اجترار وتكرار وإعادة إنتاج

---

(١) د. محمد عابد الجابري: المسألة الثقافية في الوطن العربي ص ٣٠ - ٣٢ نشر مركز دراسات الوحدة العربية طبعة ٦ بيروت ١٩٩٩ (بتصرف).

بشكل رديء للتاريخ الثقافي نفسه، الذي كتبه بعض أجدادنا تحت ضغط صراعات العصور التي عاشوا فيها...

وبالتالي مازلنا سجناء للرؤى والمفاهيم والمناهج القديمة التي وجهتهم، فتحكمت في إنتاجهم، مما يجرنا، دون أن نشعر، إلى الانخراط في صراعات الماضي ومشاكله، وإلى جعل حاضرنا مشغولاً بماضينا، وبالتّالي النظر إلى المستقبل بتوجيه من مشاكل الماضي وصراعاته، فنحن إذاً في حاجة إلى إعادة كتابة التاريخ الثقافي العربي بروح نقدية وبتوجيه من طموحاتنا في التقدم والوحدة [١].

ولئن كان الغرب الأوروبي المعاصر - في ظل نموذج وحدته السياسية والاقتصاديّة - يسعى إلى تجاوز مشكلات الماضي وهي أليمة وعميقة، من أجل الحاضر والمستقبل القائمين على الثقافة الأوروبية المشتركة، التي تنتمي إلى الإطار المسيحي المهلهل المتناقض التركيب والبعيد عن الأعماق الوجدانية والفكريّة الحقيقيّة، ومع ذلك يسعى إلى إشعال جذوته والنفخ في بقايا رماده - في ضوء علمانية ماسونية لادينية - متمسّكاً بالأباطيل اللاعقلانية التي يحفل بها العهد القديم - بخاصة.

فكيف لا نعمد - نحن المسلمين - إلى إنشاء مراكز تخطيط استراتيجية، ومستقبليّة، تعمد إلى البحث عن العناصر الثقافية المشتركة، وتسعى - بجهود كلّ المعاصرين الممثلين للماضي - إلى إبراز شُعَب الإيمان الواحدة، وإلى فكّ الألغاز الخلافية، وترك النقاط

(١) المكان السابق : بتصرف.

الفكريّة التي لا يمكن حلّها الآن - مرحلياً - (كبعض آراء الشيعة مثلاً - كنموذج) استلهاماً من النسق الأوروبي التوحيدي،.... وصولاً إلى وضع قواعد يقبلها جميع الممثلين للماضي الإسلامي، الذين يعيشون الحاضر، ويسعون لصناعة مستقبل أقل تشرذماً، وأهدأ صراعاً، وأكثر تعاوناً وتكاملاً، في إطار أننا - كمسلمين - بعيداً عن صراعات الماضي، وخلافات الحاضر - مستهدفون جميعاً من جانب ، وتواجهنا تحديات انبعاث ونهضة مشتركة من جانب آخر!!

إن الأمر يجب أن يتجاوز التقريب بين المذاهب الفقهيّة الفرعية، فهذا أسهل الأمور، ولم يعد هذا الخلاف مشكلة في ضوء تطّور الوعي الإسلامي، وإنما يجب أن يتّجه الأمر إلى صراعاتنا الكلامية العقدية، وإلى كلّ عوامل صداماتنا التاريخية، تارة باسم التعصّب لرموز معينة، أو لمنحى معّين في النظم السياسية والفكرية، أو في تقدير حقوق آل البيت أو صحابة رسول اللّه (رضي اللّه عن الجميع)...

إن على هذه المراكز والجمعيّات والمؤسسات العاملة في هذا الطريق العظيم، أن تفكّ كلّ هذه الألغاز وفق مفاهيم يرضى عنها الجميع، وتلتزم بها الكتب الدراسية، والوسائل الإعلامية، وتعقد من أجل تعميقها مؤتمرات وندوات مشتركة، وتقام - كذلك - دراسات أو دوريّات تتابع توجيه الوعي نحو معالم هذا الطريق الذي اتفق عليه جميع ممثلي الأمة...

ومن الضروري أن يكتب التاريخ الإسلامي كتابة جديدة وفق هذا المنهج.

١٠ - مشروعات ثقافيّة إسلاميّة لدمج الثقافات القوميّة

في كل الحضارات والدول تجد - غالباً - أقليّات تختلف ديناً أو عرقاً أو لغة عن الدين السائد والعرق واللغة السائدين.

ومن المعروف أنه من الضروري أن يتحد الإطار الكبير على الاعتراف بحقوق الأقليات، شريطة أن تنسجم الأقليّات مع ثوابت المجتمع، وألا تحاول التحزّب من أجل السيطرة أو التمزيق.

ومعروف أن كل بلاد العالم - حتى الكبيرة منها كالصين والهند وأمريكا- تفرض بالقانون التناغم بين ما هو عام - مشترك - وما هو خاص بالأقليات.

لكن في فترات الضعف - كالفترة التي تمر بها أمتّنا الإسلامية الآن وبعوامل خارجية أيضاً - تعمد الأقليات إلى انتهاز الفرصة لتمزيق حضارة الأمة، وهذا من جملة ما يؤرق أمتنا في عهود الاستقلال بصفة خاصة، أي منذ ستّة عقود تقريباً.!!

ومن منظوره القومي الذي يتعانق مع الإسلام يرى الأستاذ محمد عابد الجابري أن الحل لمشكلة التعدد الثقافي الراجع إلى تعدد الأقليّات في الوطن العربي لن يكون حلاً قومياً حقاً إلا بتوسيع دائرة الثقافة العربية القومية كيما تضمّ بين جنباتها الثقافات القومية الأخرى، وهذا يتطلب مراجعة مفهوم (الثقافة القومية) العربية [١].

---

(١) محمد عابد الجابري: المسألة الثقافية في الوطن العربي ص ٣٥.

لكننا نرى أن المفهوم الأشمل والأوسع هو مفهوم (الثقافة الإسلامية) ثقافة الأمة الواحدة التي عرفت باستيعابها لكل القوميات والوطنيات، وتناغمت برؤية حضارية تؤمن بالتعدد في إطار الثقافة المؤمنة الواحدة.

وفي نظرنا فإن البداية الفعلية للثقافة القومية العربية، الثقافة العربية الإسلامية، بوصفها المقوم الأساسي للشخصية العربية وللوحدة العربية، كما نتحدث عنهما اليوم، إنما هي عصر التدوين وليس العصر الجاهلي، ففي عصر التدوين تم بطريق الترجمة والاقتباس دمج الموروث القديم الضخم، المتعدد المتنوع، الذي خلفته الثقافات القديمة البابلية والفينيقية والسريانية والمصرية الإسكندرانية اليونانية في الثقافة العربية الإسلامية الواحدة [١]. وأما ما كان قد تبقى من العناصر الحية أو القابلة للحياة في الثقافات القديمة السابقة على الإسلام فقد اندمج بصورة أو بأخرى، خلال عصر التدوين وبعده، في الثقافة العربية الإسلامية، الشيء الذي يعني، أن الدعوة للارتباط بالفرعونية أو الفينيقية أو الآشورية وغيرها أصبحت منذ عصر التدوين، دعوة غير ذات موضوع، ولا تحمل أي بُعد تاريخي[٢]، وهي أقرب ما تكون إلى الخيانة للحقيقة، وللحضارة العربية الإسلامية، واستجابة فجة لعوامل التمزيق الخارجية!!.

ولكي تنتصر ثقافة الأمة الإسلامية والعربية على عوامل التمزيق الموجهة من الثقافات المعاصرة، يجب أن تُعَرَّب وتؤصل إسلامياً كل

(١) الجابري: المرجع السابق، ص ٧.
(٢) الجابري: الموقع السابق ص ٣٧.

الثقافات الأخرى، انطلاقاً من التعريب الذي وقع في عصر التدوين، ولا يعني تعريبها استحداث إناء جديد لها، فهي قد صُهرت فعلاً خلال الأربعة عشر قرناً المنصرمة، لكن المطلوب هو عدم إلغائها، بل إحياء المشترك الأصلي بينها وبين العربية، وإحياء صفتها الإسلامية التي تفخر كل الثقافات القومية - غير الموجهة - بها.

١١ - وأخيراً: ملاحظات على الطريق:

نؤكد هنا أن الاختراق الثقافي الذي يمارس على الصعيد الدولي من طرف الغرب بقيادة أمريكا قد أصبح استراتيجية ترمي إلى (شن حرب باردة حضارية على الإسلام) على حد تعبير المحللين الأمريكان أنفسهم، وهذا يوجب استنفار كل الطاقات الثقافية والإيجابية في الأمة لتدافع عن عقيدتها ومشروعها الحضاري، لأن الثقافة - في المفهوم السائد - تتصل بكل جوانب الحياة من عقائد وقيم وأخلاق وعادات وتعامل مع الكون والحياة والإنسان، ولئن كان للاحتكاك الحضاري مع الحضارة الأوروأمريكية وجوه إيجابية، فإن علينا - كذلك - أن نبحث عن الوجوه السلبية التي لابد من الوعي بها وإلا سقطنا ضحية الغفلة والوهم لنفيق في يوم من الأيام على واقع تصعبُ معالجته وإعادة بنائه[١] فالغفلة والانبهار لا تصلحان في التفاعل الحضاري الموضوعي.

ومن هنا يجب التأكيد على أن يكون التجديد مستمَداً من (الداخل) - أي من ثوابتنا - مستفيداً من الإيجابي الخارجي، ولا يكون العكس،

(١) الجابري: الموقع السابق، ص٢٠٩، ٢١١.

فنحن أمة لنا دين شمولي النظرة لا يترك جانباً من الجوانب إلا وله فيه توجيه، ولا يصلح معه ترك الدنيا لقيصر أو للماسونية والعلمانية اللتين تفصلان بين الدين والدولة، وبين الدين والدنيا...

وحبذا أن يتحد العاملون للإسلام والحاملون للهم الإسلامي العام حول قضية محورية هي (الانبعاث وتحقيق النهضة بطريق الإسلام) بعيداً عن كل صور التمزق المذهبي والقومي والوطني، منطلقين في انبعاثنا من داخل الكتاب الكريم والسنة الصحيحة، تاركين المساحات الأخرى للاجتهادات المذهبية المحلية.. عاملين على نبذ كل ما يخالف الكتاب والسنة عند كل طائفة، عن طريق (نقد الذات) والتواصي بالحق (والدعوة بالحكمة).

ولعلنا نحلم باتحاد تشترك في عضويته هيئات العمل الإسلامي على غرار اتحاد هيئات الإغاثة الإسلامية... ويكون من أهم ما يقوم به هذا الاتحاد توحيد هذه الحركات تحت قيادة واحدة، ومنع الفتنة حتى لا يقع بأسهم بينهم، وتأليف القلوب التي استمرأت أن تحمل الخلافات والعداوات، وتخطي حالة التجزئة ودول التجزئة التي تمسك بخناق الحركات الإسلامية وتجعلها عدواً ثابتاً؛ مهما أبدت من مرونة والالتفاف - بالتالي - حول قضية فلسطين، كقضية - أولى - يجب أن تقف وراءها كل القضايا الأخرى، ويجب أن يُعلن الجهاد العام من أجلها، لأن فلسطين مسؤولية كل مسلم [1]، والسكوت عنها توطئة

(١) منير شفيق: الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر ص ١٩٥، ١٩٦ نشر الزهراء للإعلام العربي ط٣، ١٤١٣، مصر (بتصرف).

لاقتحام كل مقدساتنا، وبلادنا، وهي قضية مركزية تلتقي حولها الأمة، وتصلح طريقاً لتوحيدها.

ومن الجدير بالذكر أنّ من أهمّ وسائل تحقيق الوحدة الثقافيّة إقامة محطّات إرسال سمعية وبصرية عبر الأقمار الصناعيّة تشرف عليها المنظمة الإسلاميّة للثقافة (الأيسيسكو)، تكون موجهة لخدمة الثقافة، وتعميم المنجزات الثقافيّة العالمية ذات الطابع الإنساني الهادف لخدمة البشرية.

وكذلك تخصيص مواقع كبيرة على الإنترنت لهذه الأهداف نفسها، بلغات متعددة، وفي مقابل الاتحادات الوطنيّة والقوميّة يجب أن تنشأ اتحادات إسلامية فيكون هناك (اتحاد للناشرين المسلمين) و(اتحاد المؤرخين المسلمين) وثالث (للاجتماعيين المسلمين) ورابع (للإعلاميين) وهكذا.

ومع ذلك كلّه - يبقى الباب مفتوحاً لمشروعات عمليّة كثيرة، يتعاون فيها العمل الشعبي والرسمي، ويكون فيها للمؤسسات العالميّة الإسلامية كمنظمة المؤتمر الإسلاميّ ورابطة العالم الإسلاميّ وجامعة الدول العربيّة والأيسيسكو نصيب يليق بمكانتها ورسالتها.

واللّه نسأل أنّ يتحقّق هذا في القريب، وهو على ما نقول شهيد.

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

بين يدي هذه الصفحات ٥

القسم الأول

صور من الفتن ٧

أولاً:-

نماذج من أساليب المستغربين العرب ٩

فتنة التغريب ١١

ثانيا:-

فتنة الحرب على الإسلام باسم حقوق الإنسان ٣٩

مقارنة لحقوق الإنسان في السلم والحرب بين الإسلام واليهودية ٤١

الطبيعة الإنسانية للإسلام ٤٣

أ - التسامح والرحمة في الإسلام ٤٣

ب - الحوار والاعتراف بالآخر وحقوقه في الإسلام ٤٧

جـ - الطبيعة الإنسانية الدولية للمادئ الإسلامية ٥٣

د - شهادة عالمية بحقوق الإنسان في الإسلام ٥٥

بين الطبيعة الإنسانية الإسلامية والطبيعة الصهيونية والصليبية ٥٨

مقارنة بين الحروب اليهودية والإسلامية ٦٦

تأثر الفكر الأوروبي باليهودية والعداء الثابت للآخر (المسلم) ٧٠

ثالثا:-

فتنة احتكار الولاء لآل البيت بين التوظيف الشعوبي وإقامة الدول فتنة تستنزف طاقة الأمة منذ أربعة عشر قرنا ٧٧

بنو العباس واستثمار الولاء لآل البيت ٨٦

الموضوع	الصفحة

رابعا:-
فتنة تأويل النص وإلغاء المؤلف باسم الحداثة والتنوير ٨٩
القسم الثاني
نحو القيادة والتمكين (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ١٠٥
أولا: القيادة الصحيحة للأمة حين يتم التعاون بين الأمراء والعلماء (شواهد من التاريخ) ١٠٧
١- التعاون بين أولي الأمر والعلماء هو الأصل في حضارتنا ١٠٩
٢- صور من التعاون في العصر الأيوبي ١١٢
٣- التكامل بين الساسة والدعاة في العصرين المملوكي والعثماني ١١٦
٤- التكامل بين أمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار ١٢٣
٥- من نماذج التكامل بين الساسة والدعاة في المغرب وإفريقيا ١٢٦
٦- صور للتكامل الدعوي السياسي من الهند ١٣٢
٧- دور الزهاد الصالحين في مؤازرة السلطة ومقاومة الفساد ١٣٨
٨- دولة الدعوة في جزيرة العرب ١٤٢
٩- صور دعوية معاصرة من تركيا ١٤٥
١٠- حرب التحرير الجزائرية صورة حية للتكامل الجهادي السياسي والدعويّ ١٥٠
ثانيا: ماذا يقدم المسلمون للحضارة المعاصرة؟
أ- الأخلاق الصحيحة ب - الحضارة الحقة جـ - الإنسانية اللائقة الشاملة ١٥٥
الإسلام ومنظومته الأخلاقية في مواجهة الماسونية واللادينية ١٥٧
الإسلام وحضارته في مواجهة الحضارة المادية والفوضوية ١٦٦
أهم الأفكار التي تسهم في بلورة المشروع الحضاري الإسلامي ١٧٣
إنسانية الإسلام في مواجهة الحضارة الحيوانية ١٧٧

الموضوع **الصفحة**

القسم الثالث

خطوات عملية في الطريق لوحدة الأمة الإسلامية ١٨٥
١- جغرافية الانبعاث في ضوء عصر الشتات ١٨٧
٢- خريطة ثقافية للعامل الإسلامي ١٩٠
٣- تقويم حصادنا الأكاديمي وتفعيله ١٩١
٤- وسائل لتوظيف البحوث العلمية ١٩٣
٥- إنشاء دور نشر كبرى عالمية ١٩٥
٦- هيئات للنقد الذاتي وإحياء فريضة الأخوة الإسلامية ١٩٧
٧- فقه القرآن - مع حفظه - من وسائل الوحدة الثقافية ٢٠١
٨- جمعية محاربة اليأس وزرع الأمل والعمل ٢٠٥
٩- تحجيم مشكلات الماضي الفكرية طريق للتوحد الثقافي المعاصر ٢٠٨
١٠- مشروعات ثقافية إسلامية لدمج الثقافات القومية ٢١٢
١١- وأخيرا ملاحظات على الطريق ٢١٤
الفهرس ٢١٧